الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعةالمسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

العنوان:

أدبيـــة رحلـــــة الورثيلانـــي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر

فرع: أدب عربي

تخصص: أدب جزائري

إعداد الطالبة:

لدغم شيكوش إيمان

إشراف الأستاذة:

زين حفيظة

السنة الجامعية:2012/ 2013

بسم الله الرحمن الرحيم

مصداقا لقوله تعالى { لئن شكرتم لأزيدنكم }سورة إبراهيم 07.

أشكر الله تعالى وأحمده حمدا كثيرا على ما أنعم به من النعم التي تتمُّ بها الصالحات الذي هداني ووفقني في إخراج هذا البحث .

وعملاً بقول خير خلق الله سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم :{من لم يشكر الناس لم يشكر الله }.

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كافة أساتذة اللغة العربية الذي شاء فيهم درب العلم أن نلتقي و نتمدرس على أيديهم وأخص بالذكر أستاذتي الفاضلة :" زين حفيظة "التي أشرفت على هذا البحث .

إلى كل من مد لي يد العون من قريب أو بعيد.

وخاصة * مكتبة باب الجامعة *****

مقدمـــــــة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد إمام المتقين، وعلى آله وصحبه أجمعين أمّا بعد.

عرف الإنسان العربي الرحلة، ومارس الترحال منذ العهود الجاهلية، فكانت رحلته في البداية محدودة النطاق، في إطار البحث عن الماء والكلأ، وممارسة التجارة، وبعض الهوايات كالصيد، ثم ما لبثت حتى تعددت أغراضها وتنوعت أهدافها، وذلك بمجيء الإسلام، الذي رفع من شأنها، وفتح لها آفاق جديدة، فانطلقت الرحلة في اتجاهات عديدة، وشرع العرب في تدوين رحلاتهم ابتدءا من القرن الثالث الهجري، وإن كانت الانطلاقة تاريخية جغرافية مع كل من اليعقوبي، والمسعودي، والإدريسي، لتتطور فيما بعد وتصبح فنا أدبيا خالصا، خاصة مع حلول القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أخذت الجوانب التاريخية والجغرافية تتراجع شيئا فشيئا.

إنّ أدب الرحلة لون أدبي ذو خصوصية تميزه عن بقية الألوان الأدبية الأخرى، إذ تتداخل فيه أنواعا متعددة من الخطابات كالشعر، والسيرة الذاتية، والجغرافية، والتاريخ، وغيرها، ويتنوع أسلوبه ما بين السرد القصصي والوصف والحوار، إضافة إلى طابعه الذي يتسم بالإمتاع والمؤانسة.

ومن بين الرحلات التي اشتملت على هذا الركام المعرفي رحلة الورثيلاني، الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، التي سنتناولها بالدرس والتحليل في بحثنا هذا، الذي يحمل عنوان (أدبية رحلة الورثيلاني).

وقد جاء اختياري لهذا الموضوع لدوافع ذاتية وموضوعية:

أولها: شغفي الشديد بأدب الرحلات عموما، وبرحلة الورثيلاني بشكل خاص.

ثانيها: الرغبة في التعرف على نمط دراسة النص الرحلي، ومدى تمايزه عن باقي الفنون الأدبية، كما أنّ وجود بعض الدراسات النقدية للرحلات الجزائرية، والتي اعتنت بالبناء والأسلوب واللغة كان من الأسباب التي شجعتني للخوض في هذا الموضوع.

خاصة الدراسة التي قامت بها الباحثة سميرة أنساعد، في إطار نيل شهادة الدكتوراه تحت عنوان "الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري"، والتي تناولت فيها عددا من الرحلات الجزائرية.

ومن هنا يحق لنا التساؤل:

- كيف هي البني السردية في رحلة الورثيلاني ؟
- أي نوع من الشخصيات حرص الرحالة على تقديمه في رحلته ؟
- ما مدى قدرة الكاتب على تصوير الأماكن في الرحلة ؟
- هل كان للزمان دورا بارزا في الرحلة ؟

وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن أدبية رحلة الورثيلاني ، انطلاقا من البنية السردية المتمثلة في بنية الزمان والمكان والشخصيات، وبالتالي الإجابة قدر المستطاع عن الأسئلة المحورية المطروحة سابقا.

وقد هيأت لهذا البحث خطة تقوم على تمهيد وفصلين الأول نظري والثاني تطبيقي تعرضت في التمهيد إلى مفهوم الرحلة، وآدابها وتقاليدها، وكذلك أغراض الرحلة، وأشهر أنواعها، ومفهوم أدب الرحلة وأهميته.

بينما تعرضت في الفصل الأول إلى تطور أدب الرحلة عند العرب، وأشهر الأعلام الذين كتبوا في هذا اللون، كذلك تطور أدب الرحلة في الجزائر، وأشهر الرحلات التي دوّنت خلال العهد العثماني.

أمّا الفصل الثاني فقد تطرقت فيه إلى البنية السردية في رحلة الورثيلاني، من خلال الكشف عن بنية الشخصيات، وأهم صفاتها الفكرية والنفسية والجسدية، وبنية الزمن الذي اقتصرت فيه على نوعين زمن الرحلة، وزمن التأليف، كذلك بنية المكان، بالتركيز على أهم أوصافه ومكوناته، ومزاياه، وقد تعرضت في هذا الفصل أيضا لبعض المفاهيم السردية مثل: (المكان، الزمان، الشخصية...).

ثم أنهيت هذا البحث بخاتمة، رصدت فيها أهم النتائج المتوصل إليها، والمتعلقة بالبناء السردي لهذه الرحلة.

وإذا كان لابدّ لأي بحث من منهج يهتدي به لمقاربة موضوع الدراسة، فقد ارتأيت اختيار المنهج الوصفي ، مع الاستعانة بالمنهج التاريخي في الحديث عن الرحلة وتتبع أهم الرحلات المدونة.

وقد اعتمدت في بحث هذا على مجموعة من المصادر والمراجع، أهمها متن رحلة الورثيلاني ممثلا في النسخة التي حققها محمد بن أبى شنب، في طبعتها الأولى المنشورة سنة 2008 م.

وكتاب "الرحلة في الأدب العربي" لشعيب حليفي، وكتاب "الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري" لسميرة أنساعد، وكتاب "أدب الرحلة في التراث العربي" لفؤاد قنديل، وكتاب "مشوار كتب الرحلة " لسيد حامد النساج، وبعض المصنفات في السردية العربية، ناهيك عن المقالات المنشورة في بعض المجلات العربية، كمجلة مجمع اللغة العربية، ومجلة الفيصل، ومجلة التراث العربي.

إضافة إلى بعض المعاجم كلسان العرب لابن منظور، ومقاييس اللغة لابن فارس، والقاموس المحيط للفيروز آبادي.

ومن أهم الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث قلّة المراجع والدراسات التطبيقية التي تناولت هذا اللون الأدبي الفريد من نوعه، باستثناء الدراسة التي قامت بها سميرة أنساعد في هذا المجال، وكنت قد أشرت إليها سابقا، إضافة إلى ضيق الوقت الذي لم يكن في صالحنا.

وفي الأخير أرجو أن أكون قد ألممت بجوانب الموضوع، وساهمت في التعريف بالبنية السردية لأحد نماذج الأدب الرحلي في الجزائر.

ولا يفوتني أن أتوجه بجزيل الشكر، وعظيم الامتنان إلى الأستاذة المشرفة زين حفيظة، التي منحتني الكثير من وقتها وجهدها، ولم تتوان عن رفدي بفيض معرفتها الواسعة، إضافة إلى تلك النصائح والتوجيهات، خاصة تلك الملاحظات المنهجية القيمة.

كما أتقدم بخالص الشكر والتّقدير للأستاذة روباش جميلة على ما تفضّلت به من معونة خالصة، والتي لم تبخل علي بالمراجع والمصادر التي ساعدت على اكتمال هذه الدراسة.

وإلى كل من كانت له يدّ المساعدة من بعيد أو قريب، فإن وفقت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، ربّنا اغفر لنا ولوادينا ولجميع المسلمين والحمد لله رب العالمين.

جزى الله الجميع خير الجزاء.

تمهيد

الرحلة مفهومها وأنواعها

1-الرحلة في اللغة.

2-الرحلة في الاصطلاح.

3-الرحلة في الاسلام.

4-آداب الرحلة وتقاليد السفر.

5-أغراض الرحلة.

6-أنواع الرحلة العربية.

7-مفهوم ادب الرحلة.

8-أهمية أدب الرحلة.

1-الرحلة في اللغة:

نالت مادة "رحل" في معجم لسان العرب نصيبا أوفر من الاهتمام باعتبارها مادة متداولة بشكل واسع عند العرب. وقد جاء في معجم لسان العرب: "رحل الرجل إذا سار، ورجل رحول، وقوم رحّل أي يرتحلون كثيرا، ورجل رحّال: عالم بذلك ومجيد له... والتّرحل والارتحال: الانتقال وهو الرحلة والرحلة: اسم للارتحال والمسير... والرّحلة بالضّم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده...".[1]

وفي القاموس المحيط: "ارتحل البعير: سار ومضى، والقوم عن المكان: انتقلوا، كترحّلوا. والاسم: الرِّحلة والرُحلة بالضّم والكسر، أو بالكسر: الارتحال، وبالضّم: الوجه الذي تقصد، والسفرة الواحدة "[2] .

كما وردت الرحلة في معجم مقاييس اللغة على أنها مأخوذة من "رحل، الراء والحاء واللام أصل واحد يدلّ على مضي في سفر. يقال: رحل يرحل رحلة... والرّحلة: الارتحال... ورحّلة، إذا أظْعنه من مكانه"[3] .

وتكاد معظم المعاجم الأخرى تجمع على أن الرحلة هي انتقال من مكان إلى آخر. فرغم تعدد مشتقات المادة إلّا أنها تدور حول معنى واحد هو الحركة، فالحركة جوهر الرحلة ودليل الحياة وسرّ الوجود، لذا كان على الإنسان أن يتحرك وأن يرحل، فأنتجت حركته هذه ميلاد رحلات عديدة، تنوعت بتنوع أغراضها ومقاصدها.

---

[1] ابن منظور الإفريقي: لسان العرب، مج 11، دار صادر ودار بيروت،(د ط)، بيروت، (دت)، مادة رحل.

[2] الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط 8، بيروت، 2005م. ص 1005.

[3] ابن فارس: مقاييس اللغة،ج2، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (دط)، بيروت،1979م. ص 497 .

2-الرحلة في الاصطلاح:

عرّف الدكتور صلاح الدين الشامي الرحلة بأنها:" إنجازًا أو فعلاً أو مباشرةً لما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه، والمكان الذي تنتهي إليه. وقد تكون الرحلة انجازًا صعبًا وشاقًا على الطريق، بين المكان والمكان الآخر... يتأتى هذا الإنجاز بالفعل على سبيل الاختيار من أجل هدف معين،... يكون من شأن هذا الهدف الذي تتطلع إليه الرحلة أو بلوغ الغاية منها، أن يجاوب إرادة الإنسان الفرد وحاجته الملحّة أو الإنسان المجتمع وتطلعاته الضرورية..."[1]

أمّا فؤاد قنديل فيرى بأنّ الرحلة:" سلوك حضاري، يؤتى ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها"[2]

وآخر تعريف نقف عنده هو للإمام الغزالي، والذي يقول فيه بأنّ السفر(الرحلة): "نوع حركة ومخالطة"[3]، مشيرا إلى أهم البواعث التي تحمس الإنسان على السفر والرحلة فالسفر "وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه"[4]

ونخلص من خلال هذه التعاريف السابقة، إلى أنه لا يوجد اختلاف " بين مفهوم الرحلة لغةً ومفهومها اصطلاحًا، إذ تجمع كلّها على أنّ الرحلة حركة، وهذه الرحلة ذات هدف معين، متى تحقق هذا الهدف تحصل المنفعة المنشودة، والتي يتطلع إليها كلّ رحّالة آثر الحركة على السكون. وليس من شك أن الرحلة تعدّ من أكثر المدارس تثقيفا للإنسان،

[1] صلاح الدين الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، منشأة المعارف، ط 2، الإسكندرية، 1999 م. ص 11.

[2] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب،(د ط)، القاهرة، 2002 م. ص 21.

[3] أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين،ج1، مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا،(د ط)، القاهرة، (د ت). ص 244.

[4] المرجع نفسه. ص ن.

وتوسيعا لخبراته ومعارفه، وإثراء لفكره وتأملاته، عن نفسه وعن الآخرين وعن العالم من حوله.

وفي هذا الصدد يقول الرحالة أبي الحسن علي المسعودي:

" ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه".[1]

3-الرحلة في الإسلام:

عرف العرب قبيل الإسلام السفر، ومارسوا الترحال برًا وبحرًا، فكانت لهم رحلات تجارية نشيطة مع شعوب إفريقية شمالها وشرقها، وأيضا في شرق الجزيرة حتى الهند وما ورائها، وبمجيء الإسلام في القرن السابع الميلادي شجع الناس على السفر والترحال، وحثّ على الرحلة سواء كانت للعلم أو للحج أو للتجارة أو لغايات أخرى، وهيأ لها المناخ الملائم، الذي كان من أهم الأسباب التي أعانت على انتشارها واستمرارها. وبهذا بلغت الرحلة ذروتها، خصوصا خلال فترة الفتوحات الإسلامية.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم، معجزة الإسلام الكبرى، قد حفل بالعديد من الأمثلة لكل نوع منها، وندب إليها في آيات كثيرة، رغم عدم ورود لفظ الرحلة إلا مرة واحدة في سورة قريش، التي يقول فيها الله تعالى:(لإيلاف قريش الفهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)[2] ومن بين الدعوات الصريحة إلى السير والتّرحال، نسوق إليكم باقة من الآيات القرآنية:

---

[1] أبو الحسن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، تح: سعيد محمد اللخام، دار الفكر،(د ط)،(د م)، 2000م. ص 20.

[2] سورة قريش: الآية(1- 4)

يقول الله تعالى: (قد خلت من قبلكم سُنن، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين)[1]

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم)[2]

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين)[3]

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق...)[4]

(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)[5]

انطلاقا من هذه النصوص القرآنية أخذت الرحلة أبعادا فكرية جديدة، فتحت مجالات عديدة أمام الرحالة المسلمين، تتمثل في ضرورة أن يكون مع الرحلة تفكر وتأمل، ومن هنا تحمس العرب المسلمين للرحلة، وزاد اهتمامهم بها، فانطلقوا يجوبون أقطار الأرض، حجاجا ومجاهدين، متعلمين ودعاة مرشدين.

ونخلص القول بأن الإسلام ومن خلال دعوته للرحلة والسير في أرجاء الأرض قد لفت الانتباه إلى الأهداف العليا للرحلات، وقد أوجزها الدكتور عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي على النحو التالي:[6]

---

[1] سورة آل عمران: الآية (137)

[2] سورة يوسف: الآية (109)

[3] سورة النمل: الآية (29)

[4] سورة العنكبوت: الآية (20)

[5] سورة الملك: الآية (15)

[6] عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط 1، القاهرة، 1996م. ص 18-22 . (بتصرف)

أولا: التفكر في خلق السموات والأرض والتأمل في عظمتها وإحكامها وانتظامها، ويتجلى هذا في قوله تعالى:(لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[1]

(أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب اجلهم فبأيّ حديث بعده يؤمنون)[2]

(... قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنّذر عن قوم لا يؤمنون)[3]

ثانيا: تمكين الصالحين في الأرض والاستخلاف فيها وعمارتها بكل نافع ومفيد، لقاء منهجهم الخيِّر وفقا لقوله تعالى:(ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذّكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصّالحون)[4]

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها...)[5]

(ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين)[6]

ثالثا: الفوز بالدنيا والآخرة، فالرحلة تعود على المرء بالخير في الدنيا من رزق وعلم وصحبة طيبة، وثواب الله وأجره العظيم في الآخرة، وفي سياق الحض على الرحلة يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه وانصب فان لذيذ العيش في النّصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب

---

[1] سورة غافر: الآية (57)

[2] سورة الأعراف: الآية (185)

[3] سورة يونس: الآية (101)

[4] سورة الأنبياء: الآية (105)

[5] سورة الأعراف: الآية (137)

[6] سورة القصص: الآية(5)

الأسد لولا فراق الغاب ما افترست والسهم لولا فراق القوس لم يصب

القبر كالتّرب ملقى على أماكنه والعود في أرضه نوع من الحطب

4-آداب الرحلة وتقاليد السفر:

إنّ السفر جملة من الأدب التي ينبغي على المرء الالتزام بها إذا أزمع السفر أو الرحلة، وقد اعتنى صفوة من العلماء بجمعها، فأوردها الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)، كما جمعها الإمام النووي في كتابه (المجموع)، ونودّ أن نورد بعضا منها على النحو التالي:

أولا: لابد للمسافر أن يبدأ "بردّ المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، ويردّ الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب"[1]

ثانيا: أن يصلي صلاة الاستخارة إذا عزم على السفر، ويصلي قبل خروجه ركعتين مع الدعاء، "فعن المطعم بن المقداد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال:" ما خلق أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفرا"[2]

ثالثا: أن يختار رفيقا ولا يخرج وحده،" وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسي ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ولا يُعرف الرجل إلاّ برفيقه"[3]

رابعا: أن يودع أهله وأصدقائه وجيرانه، ويستحب أن يدعو له من يودعه، ومما جاء في هذا من الأحاديث" حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أراد أحدكم سفرا فليودع إخوانه، فإن الله جاعل في دعائهم خيرا"[4]

[1] أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. ص 250.

[2] عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها. ص 51.

[3] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. ص 251.

[4] عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها. ص 48.

خامسا: أن يكون سفره يوم الخميس، وأن يكون باكرا، "وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام قال:" اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها"[1]

سادسا: ينبغي عليه أن يسير مع الناس، ولا يمشي بالنهار منفردا خارج القافلة، وأن يكون متحفظا بالليل عند النوم، ويستحب أن يتناوب الرفقاء في الحراسة ليلا.[2]

سابعا: أن لا يحمِّل الدابة فوق طاقتها، ولا يضربها في وجهها فإنه منهي عنه، ولا ينام عليها، ويستحب أن يريح الدابة بالنزول عنها غدوة وعشية.[3]

ثامنا: أن يكون معظم سيره بآخر الليل، وأن لا ينزل إلاّ بطلوع النهار، فهي سنة قال صلى الله عليه وسلم:" عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار"[4]

تاسعا: أن يتجنب المعاصي، وأن يكون" حسن الخلق مع الغلام والحمال والرفيق والسائل وغيرهم"[5]

عاشرا: الإكثار من أدعية السفر، فدعاء المسافر مستجاب،" ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على الولد"[6]

إحدى عشر: أن يستعد لرحلته، كأن يتزود بالطعام والشراب واللباس والأدوية إن كان مريضا، وغيرها من الحاجيات التي تتطلبها الرحلة، قال الله تعالى:"... وتزودوا فإن خير

---

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. ص 253.

[2] المرجع نفسه. ص 254.

[3] المرجع نفسه. ص ن.

[4] المرجع نفسه. ص 253.

[5] محي الدين بن شرف النووي: كتاب المجموع، ج 4، تح: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، (د ط)، جدة، المملكة العربية السعودية، (د ت). ص 276.

[6] المرجع نفسه. ص 278.

الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب"[1] ، وقد " كان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا سافر حمل معه خمسة أشياء: المرآة والمكحلة والمقراض والسواك والمشط."[2]

اثنى عشر: أن يقتصر في إقامته، فإن كانت وجهته" لقاء أحد المشايخ فلا يقيم ببلدته أكثر من أسبوع أو عشرة أيام إلاّ أن يأمره الشيخ المقصود ذلك... وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد عن ثلاثة أيام فهو حد الضيافة"[3]

ثلاثة عشر: يجب عليه وهو في طريق العودة، وباقترابه من الديار أن يرسل إلى أهله من يبشرهم بقدومه، ومن المستحسن أن لا يصل أهله ليلا،" ففي حديث أنس قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطرق أهله ليلا وكان يأتيهم غدوة أو عشية) [4]" وينبغي أن يحمل إلى أهل بيته" تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فذلك سنة" [5].

أربعة عشر: عليه أن يتعلم بعض الأمور التي تفيده في آخرته، كأن يتعلم أدلة القبلة وأحكام الصلاة، وقد أباح الله عزّ وجل التقصير في الصلاة، كأن يصلي المسافر الظهر والعصر والعشاء ركعتين بدلا من أربعة، كما أباح الجمع بين الصلاتين تقديما وتأخيرا،" فعن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم(كان في غزوة تبوك إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر، وإن ترحل قبل أن تزيغ الشمس آخر الظهر حتى ينزل العصر، وفي المغرب مثل ذلك إذا غابت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين المغرب والعشاء وإن ترحل قبل

[1] سورة البقرة: الآية (197)

[2] أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. ص 254.

[3] المرجع نفسه. ص 255.

[4] محي الدين بن شرف النووي: كتاب المجموع. ص 282.

[5] أبو حامد الغزالي: أحياء علوم الدين. ص 255.

أن تغيب الشمس آخر المغرب حتى ينزل العشاء ثم جمع بينهما)"[1]

إنّ في هذه التوجيهات والإرشادات والفتاوى، تحريضا صريحا على السفر والرحلة، واتباعها والالتزام بها شرطا ضروريا كي يفلح الإنسان في دينه ودنياه.

5- أغراض الرحلة:

تحرك الإنسان عدّة دوافع للقيام بالرحلة، وقد اختلفت هذه الدوافع من شخص إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، ويمكننا رصدها دون ادعاء حصرها على النحو التالي:

5-1- دوافع دينية:

تتمثل في تأدية فرائض دينية كالحج أو زيارة الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمن، ويدخل في نفس الباب الجهاد في سبيل الله، وتبليغ الدعوة الإسلامية إلى أقطار العالم، فتكون هذه الدوافع وراء إنجاز عدد كبير من الرحلات، فالمسلمون تحمّلوا كل مشقة في سبيل أداء هذه الفرائض.

5-2- دوافع علمية:

كالسعي وراء لقاء العلماء والمشايخ والاستفادة منهم، أو الإقبال على مراكز العلم في أي قطر من أقطار العالم، طلبا لعلم من العلوم المختلفة من فقه وطب وهندسة ورياضيات وفلك وغيرها، ومن أجل هذا وُجدت الرحلة العلمية.

5-3- دوافع تجارية:

بغرض تبادل السلع والمنتجات أو لفتح أسواق جديدة، أو لتسويق السلع والبضائع المحلية، أو لجلب السلع النادرة التي لا تتوفر في بلد المسافر، فالتجارة تقتضي القيام برحلة، ولهذا عُرفت الرحلة التجارية منذ قديم الزمان.

[1] محي الدين بن شرف النووي: كتاب المجموع. ص 251.

5-4- دوافع سياسية:

لتبادل الآراء ونقل وجهات النظر، أو لتوطيد العلاقات بين الدول، أو لمناقشة شؤون الحرب والسلم، أو بغرض التوسط لحل النزاعات والمشكلات، وهذه المهمّات تتولاها الوفود والسفارات التي يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى.

5-5- دوافع سياحية:

وتكون حبّا للسفر في حدّ ذاته، وتغيير الأجواء، والتسلية والترفيه، والترويح عن النفس، والمغامرة والاطلاع على حضارات الدول والتعرف على معالمها الشهيرة كالآثار والأبراج والقصور والمسارح وغيرها.

5-6- دوافع أخرى

هناك دوافع أخرى تقتضي السفر والرحلة، كالسفر من أجل العلاج، أو هروب من وباء أو طاعون، أو الخروج من أرض غلب على أهلها الفساد والكفر، أو الفرار من إذاية في البدن والمال.

6- أنواع الرحلة العربية:

تعددت أنواع الرحلات عند العرب تبعا لتعدد أغراضها ومقاصدها، وقد اختلف الباحثين المعاصرين في تصنيف الرحلات، وهذا راجع إلى طبيعة المنهج الذي اتبعته هؤلاء، ففريق اتبع المنهج التاريخي، وآخر مزج بين المنهجين التاريخي والجغرافي، وفريق ثالث اخذ يفكك ويجزأ حتى بدى الخلط واضحا في تصنيفه، وعلى العموم فإن أقرب التصنيفات للواقع هو الذي يحصر الرحلة في الأنواع التالية:

- الرحلات التجارية.
- الرحلات الدينية.

- الرحلات العلمية.
- الرحلات الرسمية.

6-1- الرحلات التجارية:

تعدّ الرحلة التجارية من أقدم الرحلات التي عرفتها البشرية، فقد عرف العرب هذا النوع من الرحلات منذ الجاهلية وإن كانت محدودة النطاق، حيث كانت لقبيلة قريش رحلتان موسميتان، رحلة في الصيف إلى الشام، ورحلة في الشتاء إلى اليمن، ويؤكد الدكتور نقولا زيادة "بأنّ الباحثون مجمعون على أن هاتين الرحلتين كانتا للتجارة"[1] ، تشتري فيهما قريشا ما تحتاجه من سلع وبضائع، وتبيع الفائض عن حاجتها، هذا فيما يتعلق بالرحلات الخارجية. أما الرحلات الداخلية فكانت تتم في نواحٍ متعددة من الجزيرة العربية، وتتمثل في تلك الأسواق التي حرص العرب على إقامتها سنويا، لغرض تبادل السلع(بيعا وشراء)، أو لأغراض أخرى كترويج الأفكار والديانات الجديدة، وإلقاء القصائد، كما أنّ" الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخرج في المواسم، لعرض نفسه على القبائل، لهدايتهم إلى الإسلام" [2]، ومن أشهر هذه الأسواق سوق عكاظ،* وسوق ذي مجاز، **وسوق مجنة *** ،وغيرها. هذه

[1] نقولا زياد: الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، (د.ط)، بيروت- لبنان،1987م. ص 147م.

[2] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7، جامعة بغداد، ط 2، بغداد، 1993م، ص 370.

* (عكاظ): اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية ، وهي سوق تجارة و سوق سياسة و سوق أدب، فيها كان يخطب كل خطيب مصقع ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخارا بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل.أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج 4، دار صادر،(د ط)، بيروت،1977 .ص 142؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج 7. ص 377.

** (ذي مجاز): وهي سوق جاهلية على فرسخ من عرفة، بناحية كبكب، يقصدها الناس بعد الانصراف من سوق مجنة، فيقيمون فيها ثمانية أيام يبيعون و يشترون . أنظر جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 7، ص 380.

*** (مجنة): من اسواق العرب في الجاهلية ،يذهب الناس إليها بعد سوق عكاظ ،فيقيمون بها عشرة أيام ،فإذا رأو هلال ذي الحجة في نهاية هذه الأيام العشرة قصدوا ذا المجاز،أنظر جواد علي :المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،ج 7.ص 380.

كانت أسواقهم وتجارتهم أيام الجاهلية، وبمجيء الإسلام خاصة خلال فترة الفتوحات، واتساع رقعة الدولة الإسلامية، وعمل الخلفاء المسلمين على تعبيد الطريق وتأمينها، وفرض ثقافة الإسلام الداعية إلى الأمن ونشر السلام، الأمر الذي أدى إلى زيادة نشاط الرحلات التجارية، فرحل التجار المسلمون إلى الهند والصين وجنوب شرق أسيا وأواسط إفريقيا وشمال شرقي أوربا وغيرها من المناطق، وبهذا اتسعت آفاق الرحلة العربية وارتفع شأنها وقيمتها، وزادت إمكانياتها، ولعل أشهر الرحلات التجارية في الإسلام رحلة التاجرين "سليمان السيرافي " و" ابن وهب القريشي" في القرن الثالث الهجري.

6-2- الرحلات الدينية:

تعدّ الرحلات الدينية من أكثر الرحلات شيوعا وانتشارا، وأعظمها شأنا، تقع ما بين هجرة وجهاد وحج، فالهجرة هي أولى أشكال الرحلة الدينية، أشهرها هجرة المسلمين إلى الحبشة فرارا من بطش قريش، وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة.

أمّا رحلة الجهاد فقد فرضها الإسلام على كل مسلم توفرت فيه شروط معينة، ويكون الجهاد إمّا دفاعا أو هجوما، في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وممّا لاشك فيه أنّ هذه الرحلة حققت أهدافًا لا يُعلى عليها سواءً في تحرير الناس من الكفر، وإشاعة الأمن والأمان للمسلمين.

إضافة إلى رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ، والتي عُرفت منذ أيام خليل الله إبراهيم عليه السلام ، الذي كان يُرغب الناس إلى تلك الأسواق التي تقام فيه ، وبمجيء الإسلام ألزمهم القيام بالحج مرّة في العمر للقادر على ذلك ، فأصبح الحج ركنا من أركان الدين الإسلامي مقرونا بالاستطاعة[1]، وفقا لقوله تعالى: (ولله على الناس حج البيت من استطاع

[1] عواطف محمد يونس نواب: الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دار الطبع،(د ط)، الرياض، 1996 م. ص 36.(بتصرف)

إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين)[1]، لذا تجشم المسلمون كل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، وزيارة أضرحة الأنبياء والصالحين، وقد روى كثير من الحجاج مشاهداتهم وانطباعاتهم عن الأشخاص والأماكن التي مرّوا بها، والدروب التي سلكوها، والأحداث التي صادفوها، ومنهم من قام بتدوينها في كتب ومؤلفات، وممّا ورد في كتب الرحلات أن العديد من الحكام والسلاطين قد أقاموا على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج، وعهدوا إلى الجنود تأمين طريق الحج وحماية سالكيه"[2] ممّا أدى إلى تيسير الرحلة إلى الحجاز لكل الحجاج القادمين من الغرب والشرق.

ومن أشهر رحلات الحج، رحلة" ابن بطوطة" الذي رحل إلى الحج وهو في الثانية والعشرين من عمره، وعرف برحلته الشهيرة في كتابه" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ورحلة "ابن جبير" الذي قصّ علينا ما شاهده في طريقه إلى الحج وعودته منه، ومحمد السنوسي ورحلته الحجازية، وغيرهم ممن ساهم في نقل أخبار ومعارف البلدان والشعوب الإسلامية.

6-3- الرحلات العلمية:

وهي من أهم أنواع الرحلات، كيف لا وأصحابها قاموا بها طلبا للعلم والمعرفة،وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى هذا النوع من الرحلات، وأشهر رحلة علمية وتعليمية وردت فيه، هي رحلة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح الخضر عليه السلام، واصطحابه لغرض التعلم قال تعالى: (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا فلما جاوزوا

[1] سورة آل عمران: الآية (97).

[2] حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، عالم المعرفة، (د. ط)، الكويت، 1989م. ص 80.

قال لفتاه ءاتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغ فارتد على آثارهما قصصا فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل أتبعك على أن تعملن مما عُلمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا...)[1] وقد جاءت السنة مؤكدة على أهمية طلب العلم، وبيان وجوبه وفضله، ومن الأحاديث التي جاءت عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:(أطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم)[2]

(من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع)[3]

(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة)[4]

وبما أن أحد سبل التعلم وطلب العلم هو الارتحال، فقد شدّ الرحال الكثير من المسلمين سعيا وراء العلم، ويؤكد ابن خلدون في مقدمته" على أن الرحلة لابّد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[5]. والرحلة في طلب العلم تختلف باختلاف أغراضها ومقاصد أصحابها، فمنهم من يرتحل للقاء العلماء والأخذ عنهم والنهل من علومهم، حتى أن هذه الرحلة" أصبحت في العصور الإسلامية معيارا للحكم على مستوى

[1] سورة الكهف: الآية. (59-68).

[2] الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث، (د د ط)، ط1، دمشق، 1975م. ص 72.

[3] صبحي الصالح: منهل الواردين شرح رياض الصالحين، ج2، دار العلم للملايين،ط1، بيروت، لبنان، 1970م. ص 756.

[4] المرجع نفسه. ص 755.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر،(د ط)، بيروت، 2004. ص 560.

العلماء والفقهاء"[1]، ومنهم من يرتحل لجمع الحديث النبوي الشريف باعتباره المصدر الثاني للإسلام، فكان لرحلات الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم فضل كبير في جمع الحديث والمحافظة عليه،" ومن العلماء والفقهاء من كان يقطع القفار، ويعبر الأنهار طلبا لحديث نبوي شريف سمع به، أو لمجرد التحقق من كلمة فيه"[2] كما" كانت الرحلة في طلب الحديث من لوازم طريقة المحدثين ومنهجهم في التحصيل العلمي"[3].

ومن الذين رحلوا لجمع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جابر بن عبد الله، الذي رحل" من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهرا في حديث بلغهم عن عبد الله بن أنيس الأنصاري يحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه"[4]. والإمام البخاري الذي يعتبر من أعظم من رحل في طلب الحديث، وعبد الله بن عباس، والغزالي، وابن منده وغيرهم.

ومن الرحلات العلمية أيضا الرحلة في طلب تفسير آية قرآنية، كما يتضح من قول أبي الدرداء: " لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفتحها عليّ إلاّ رجل ببرك الغماد لرحلت إليه)"[5].

وكما اتجه البعض إلى الحديث يجمعونه ويدوّنونه، اتجه البعض الآخر إلى اللغة يجمعونها فكانت مصادرهم متعددة من بينها سماع الأعراب في البادية،" فكثيرا ما كانوا يخرجون ويمضون الأعوام فيها، ويخالطون الأعراب ويؤاكلونهم ويشاربونهم، ويسمعون منهم ويدوّنون، يسمعون الرجل والمرأة والغلام يتحدثون في الإبل والمرعى والزواج والطلاق وجميع

[1] سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب،(د. ط)، القاهرة، (د.ت). ص 10.

[2] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي. ص 19.

[3] الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث. ص 17.

[4] أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. ص 17.

[5] الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث. ص 195.

شؤونهم، ويصغون إليهم وينقلون عنهم..."[1]، ويعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي حسب ما يقال أول من فكر في جمع ألفاظ العرب، وقد أورد السيوطي في كتابه أنّ الكسائي سأل" الخليل بن أحمد من أين أخذت علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج ورجع؛ وقد أنفذ خمسة عشر قنينة حبر في الكتابة عن العرب"[2]، إضافة إلى الأصمعي الذي ملأ كتب الأدب بما روى عن أعراب البادية.

ومن أهم الرحلات العلمية، رحلات الكشوف الجغرافية، فقد اعتنى العرب بالفكر الجغرافي منذ القدم، وبمجيئ الإسلام تطورت هذه المعرفة، حيث دفعت عوامل جديدة المسلمين للاهتمام بالفكر الجغرافي، فتوسع الفتوحات الإسلامية استلزمت معرفة جغرافية للبلدان المتجه إليها من حيث الطرق، والمناخ، وموارد المياه، والقوة البشرية. ونظرا لاتساع الدولة الإسلامية كان "لابّد من تجميع المعلومات عن الأقطار الجديدة ليتيسر إدارتها، وحكمها حكما صحيحا، ومعرفة خراجها"[3]، وهذه المعرفة لا تتم إلاّ بشد الرّحال إلى هذه البلدان، لذلك شجع الولاة والخلفاء على جمع المعلومات الجغرافية، حيث طلب عمر بن الخطاب من حكيم معاصر له" بأن يصف له المدن وجوّها ومنازلها وأثر المناخ على سكانها"[4]، كما كان للفروض والشعائر الإسلامية دور في العناية بالجغرافيا، فالحج تطلب إلمامًا أوسع بالطرق والمسالك المؤدية إلى الأماكن المقدسة، والصلاة تطلبت معرفة جغرافية لضبط مواقيتها في أنحاء الدولة الإسلامية، واقتضى تحديد بداية الصوم ونهايته واستخدام

[1] أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، القاهرة، 1998م. ص 256.

[2] السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج2، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط 2، القاهرة، 1979م. ص 163.

[3] شاكر خصباك: الجغرافيا عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1986. ص 7.

[4] أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، (د ط)، جدة، (د ت). ص 11؛ نقلا عن المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 3. ص 123.

التقويم القمري معرفة خاصة بالجغرافيا الفلكية[1].إضافة إلى ازدهار النشاط التجاري الذي لعب دورًا أساسيًا في إثراء هذه المعرفة، فقد عمل التجار على تجميع المعلومات اللازمة سواءً المتعلقة بالطرق، أو بالأسواق التجارية، أو بالسلع والأسعار.

ثم خطت الجغرافيا خطوة جديدة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، بحكم" انتقال المعرفة الجغرافية الهندية والإيرانية واليونانية إلى العرب"[2]، وذلك عن طريق الترجمة والنقل إلى العربية، فانبثقت المؤلفات الجغرافية شيئا فشيئا، ويعدّ ابن خرددابة رائد هذا النمط من التأليف في كتابه المسالك والممالك، وعلى العموم اتجهت الكتابة الجغرافية عند المسلمين في أربع اتجاهات:

- انفرادها بأقطار العالم الإسلامي ويبدو ذلك واضحا في كتابات البلخي، والاصطرخي، وابن حوقل، والمقدسي.
- التخصص في قطر واحد كالبيروني والهمذاني وابن فضلان.
- ظهور المعاجم الجغرافية مثل(معجم البلدان) لياقوت الحموي، و(معجم ما استعجم) للبكري.
- ظهور الموسوعات الكبرى مثل(نهاية الأرب) للنويري، و(صبح الأعشى) للقلقشندى، و(مسالك الأبصار)لابن فضل الله العمري.[3]

ويدخل في إطار الرحلة العلمية خاصة في العصر الحديث، حضور الندوات والملتقيات العلمية والأدبية والمشاركة فيها، ومن بين الذين قاموا بهذا النوع من الرحلات بعض الرحالة

[1] عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، (د ط)، مصر، 2000م. ص 69.(بتصرف)

[2] جمال الفندي: الجغرافيا عند المسلمين، دار الكتاب اللبناني، ط 1، بيروت، لبنان، 1982م. ص 90.

[3] نقولا زياد: الجغرافيا والرحلات عند العرب. ص 12،13.(بتصرف)

الجزائريين أمثال: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، وأبو قاسم سعد الله، ومحمد ناصر.[1]

6-4- الرحلات الرسمية:

يندرج تحت هذا النوع كل من الرحلات التكليفية، والإدارية، والسفارية. فالرحلة التكليفية هي التي تكون بتكليف من الملوك والحكام والولاة، وذوي السلطة للقيام بمهمات رسمية، نذكر على سبيل المثال رحلة (ابن سلام الترجمان) الذي كلفه الخليفة الواثق بأن يذهب إلى حصون جبال القوقاز، لمعاينة سد الصين الكبير، الذي بناه ذو القرنين لعزل قوم يأجوج ومأجوج[2].

ويدخل في باب التكليف الإداري، الحاجة إلى جمع البيانات والمعلومات عن البلدان التي امتد إليها الإسلام، وتقدير الثروات وحجم الضرائب، وتقديم التقارير، وقد لعبت الرحلات دورا هاما في أداء تلك الأنشطة، التي أطلق عليها صفة(الجغرافيا الإدارية) أو(كتابة تواريخ الأقاليم).[3]

أمّا الرحلات السفارية، فقد تعددت تبعا للتقدم الحضاري في العصر الحديث تحديدا، ونشوء الدول، والتي تقوم بإرسال السفراء إلى مختلف دول العالم، من أجل نقل الرسائل، وتبادل وجهات النظر، وتوطيد العلاقات، ومناقشة مختلف القضايا (السياسية والاقتصادية والتعليمية...)، غير أن نظام السفارة لم يكن وليد العصر الحديث، بل كان معروفا منذ القدم،

[1] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، (د، ط)، عين مليلة- الجزائر، 2009. ص 26، 27.(بتصرف)

[2] حسين محمد فهيم: أدب الرحلات. ص 81.

[3] المرجع نفسه. ص ن.(بتصرف)

لكنه كان في حدود الأغراض المعاشية الدنيوية، وبمجيء الإسلام اهتم بالسفارة، وسما بها إلى درجات الأعمال الدينية الهادفة، وقد أخذت السفارة في الإسلام الصور التالية:

- التوسط في فض الخصومات وتصفية النزاعات
- تبليغ الدعوة إلى مختلف أقطار العالم
- التشاور في مختلف القضايا وإزالة التوتر[1]

ومن أشهر الرحلات السفارية، رحلات السفراء الذين أوفدهم الرسول صلى الله عليه وسلم برسائل الى ملك فارس، وإمبراطور بيزنطة، ونجاشي الحبشة، وعظيم القبط في مصر، ومنها أيضا سفارة الرشيد إلى ملك الفرنجة، والسفارة التي بعث بها المقتدر بالله العباسي إلى ملك البلغار وقد روى ابن فضلان، الذي كان أحد أعضاء وفدها، أنّ ملك البلغار بعد أن أسلم طلب من الخليفة العباسي المقتدر بالله أن يرسل إليه بعثة" تفقهه في الدين، وتعرفه شرائع الإسلام، وتبني له مسجدا، وتنصب له منبرا يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته، وسأله إلى ذلك أن يبني له حصنا يتحصن فيه من الملوك المخالفين له"[2]، وقد قام ابن فضلان في رحلته هذه، بتدوين مشاهداته وملاحظاته، فوقف على أدق التفاصيل مُحددا تاريخ الرحلة وأيامها، وخطتها وسيرها[3]

7- مفهوم أدب الرحلة:

وُجدت الرحلة الأدبية في تراثنا الأدبي بشكل ملحوظ، إلاّ أنها غابت مصطلحا أدبي له شرائطه وأساليبه، ولعل العصر الحديث هو العصر الذي شهد ظهور هذا المصطلح، كما

[1] عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها. ص 30-35.(بتصرف)

[2] أحمد ابن فضلان: رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، تح: سامي الدهان، المطبعة الهاشمية،(د ط)، دمشق، يونيو، 1960م. ص 23.

[3] المرجع نفسه. ص 25.

شهد ميلاد أنواع أدبية جديدة، مثل المقالة الصحفية والقصة والرواية، إضافة إلى تحديد الأنواع الأدبية، ووسمها بأسماء خاصة مثل "أدب السيرة الذاتية "و" أدب الرحلة" و"أدب الاعتراف"، وخير دليل على هذا الافتراض هو وجود هذا المصطلح من أدب الرحلات" على صدر غلاف كتاب رفاعة الطهطاوي" تخليص الإبريز في تلخيص باريز"[1].

ولا شك أنّ تحديد مفهوم الرحلة سيكون صعبا، نظرا لعدة اعتبارات أساسية منها:

- "غياب تقعيد واضح للمفهوم، سواء عند الرحالة أو عند اللغويين العرب.
- وجود نصوص رحلية كثيرة ومتنوعة، الأمر الذي يصعب معه تحديد مفهوم جامع تلتقي حوله كل الأنواع الرحلية.
- انفتاح النص الرحلي على عناصر أخرى تحضر أو تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص"[2].

وسنحاول تقديم مجموعة من الدراسات والاجتهادات، التي قام بها بعض الباحثين والنقاد، في محاولات للتعريف بهذا الأدب، والتوصل إلى أهم ما يتميز به هذا الفن عن غيره من الفنون الأدبية.

عرّف صاحبا معجم المصطلحات العربية أدب الرحلات بأنه:" مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه

[1] عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي: أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، تحت إشراف محمد صالح جمال بدوي، قسم الدراسات العليا العربية، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1997م، ص 7.(بتصرف)

[2] شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006م. ص 82،81.

من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"[1].

ويرى الدكتور حسين محمد فهيم أنّ " الكتّاب العرب استخدموا عبارة (أدب الرحلات) للإشارة إلى كتابات الرحالة المسلمين وغيرهم التي يصفون فيها البلدان والأقوام، والتي يذكرون فيها أيضا أحداث تجوالهم، ودوافع رحلاتهم، وما قد يصاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية أو إصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه أو سمعوه".[2]

أما عند إنجيل بطرس فإنّ" أدب الرحلات هوما يمكن أن يوصف بأدب الرحلات الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحّال إلى بلد من بلاد العالم، ويدوّن وصفا لها، يسجل فيه مشاهداته، وانطباعاته بدرجة من الدقة، والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير... وهناك صفتان عامتان لابّد من توفرهما في أدب الرحلات وهما:

أولا: أن يكون من يكتب عن الرحلات رحالاً بطبعه محبا للرحلات.

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة، والرغبة الشديدة التي تتملكه للقيام بها".[3]

إنّ هذه الشروط التي ينص عليها إنجيل بطرس، والتي ينبغي توافرها في تسجيل المشاهدات والانطباعات، قد لا تتحقق في كل الرحلات، فمثلا قد يكون الرحالة غير دقيق في وصفه، ولا يهتم بدقائق الموصوف.

---

[1] مجدي وهبه، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت لبنان، 1984م. ص 17.

[2] حسين محمد فهيم: أدب الرحلات. ص 13.

[3] إنجيل بطرس سمعان:" الرحلة في الأدب الانجليزي"، مجلة الهلال، ع د يوليو،1975، مصر. ص 7.

وذهب محمد يوسف نجم في معرض حديثه عن أسلوب الوصف في الرحلات، إلى أنّ" قيمته متأتية من أنها تصور لنا تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه والانطباعات التي تركها في نفسه: ناسه وحيواناته ومشاهده الطبيعية وأثاره، فهي بذلك مغامرة ممتعة تقوم بها روح حساسة في أمكنة جديدة وبين أناس لم يكن لها بهم سابق عهد... فالرحلة إذن ليست سوى تجربة إنسانية حية يتمرس بها، ويجعل التعرف إلى دقائقها واستكناه خفاياها وكدّه ؛ فيخرج منها أكثر فهما وأصدق ملاحظة، وأغنى ثقافة وأعمق تأملات... وشر ما يعتري هذه المقالة تدني الكاتب إلى العاطفية المسرفة، وتكلفه المواقف التي وقفها غيره أمام المشاهد التي يستوعبها بصره وبصيرته".[1]

وتحدث نبيل راغب عن أسلوب الكتابة في الرحلات، فرأى أنّه" برغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في التسجيل والأسلوب، من الوصف العلمي إلى السرد القصصي إلى الحوار وغيره فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى... بل إن التفكير العلمي الذي صاحب أدب الرحلات قد صرف كتابه في أغلب الأحيان عن الزخارف اللفظية المصطنعة، والمحسنات البديعية المفتعلة... ومع ذلك احتفظ بجاذبيته بسبب تنوعه، وغنى مادته، فهو تارة علمي وتارة شعبي، وهو طورا واقعي وأسطوري على السواء، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة . لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب".[2]

وآخر تعريف نقف عنده هو تعريف سيد حامد النساج، والذي يقول فيه بأنّ أدب الرحلات هو" ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة موضوعا، أو بمعنى آخر: الرحلة

[1] محمد يوسف نجم: فن المقال، دار الثقافة، (د ط)، بيروت، 1966م.ص 115.

[2] نبيل راغب:" أدب الرحلات"، مجلة الفيصل، ع د 88، يوليو1984م، المملكة العربية السعودية. ص 74.

عندما تكتب في شكل أدبي نثري متميز، وفي لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة"[1]

ومن هنا فإن أدب الرحلة ينحصر في دراسة النثر الرحلي ذي الطابع الأدبي، وبالتالي تخرج جميع الكتابات ذات الأسلوب العلمي، والتي يكون فيها الجانب الأدبي باهتًا إن لم يكن منعدما عن دائرة هذا الأدب.

8- أهمية أدب الرحلة:

تكتسي كتب الرحلات أهمية كبيرة في رصد بعض جوانب الحياة، إن لم نقل جميعها، نظرا لما تحتوي عليه من معارف متنوعة، مما يجعل هذه الكتب قبلة للعديد من الباحثين المختلفي المشارب؛ من أجل متح المعارف التي تهمهم " إذ تتوفر فيها مادة لا ينصب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافي فحسب، بل أيضا لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الأدب والعلم والدين، وللغويين وعلماء الطبيعة".[2]ومن هنا كان للرحلات قيمتين بارزتين هما: القيمة العلمية والقيمة الأدبية، إضافة إلى القيمة التعليمية.

القيمة العلمية" تأتي ممّا تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها ممّا يدوّنه الرحالة تدوين المعاين في غالب الأحيان، من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة".[3] فهو يقوم بدور الناقل، لكل ما يشاهده، ليضعه بين أيدي الجغرافيين أو المؤرخين أو الاثنوغرافيين... كل حسب دراسته، فالجغرافي جعلها مصدرا يستقي منه ما يورده الرحالة من معلومات جغرافية عن الممالك

[1] سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة. ص 5.

[2] أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر،(د ط)، القاهرة، 1965م. ص18.

[3] حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، ط2، بيروت، لبنان، 1983م. ص 6،7.

والبلدان والأصقاع والأقاليم والمناخ والطبيعة وتوزيع السكان، كما جعلها المؤرخ نصا تاريخيا يمتح منه كثيرا من المعلومات الغميسة المتصلة بالبلدان المزورة. وما يقال عن الجغرافي والمؤرخ يقال عن الأديب والفيلسوف وعالم الاجتماع والباحث الاثنوغرافي والسياسي والاقتصادي.

أمّا القيمة الأدبية في الرحلات فتتجلى في أسلوب الكتابة، واللغة التي يستخدمها صاحب الرحلة، خاصة عندما يحتفل الرحّالة بالأساطير والخرافات والأشعار، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على الأسلوب القصصي، السلس، المشرق، لذلك أدخل بعض الدارسين أدبيات الرحلة ضمن فنون الأدب العربي، وأصبحت قراءة هذا اللون من الكتابة متعة ذهنية كبرى.[1] وانطلاقا من" أسلوب أدب الرحلة وموضوعه الشمولي الغني بما فيه من علم وأدب وخرافة وأسطورة يمكننا اعتباره نمطا خاصا من أنماط القول الأدبي، قد لا يرقى إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الأدبية مثلا، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبطه معاييرها أو يخضع لمقاييسها"[2]

وثمة قيمة أخرى ألا وهي القيمة التعليمية، فهذا النوع من الأدب يعدّ أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وإثراءً لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين، كما يعتبر مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية، من خلال مخالطة الناس والأقوام والاجتهاد في دراسة أخلاق الشعوب وطباعهم، ودياناتهم ونظم حكمهم، وهذا ما يساعد الفرد على إعادة النظر في تقاليد ونظم بلده.

[1] سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة. ص 8. (بتصرف)

[2] حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب. ص 9.

الفصل الأول

أدب الرحلة عند العرب وعند الجزائريين

1- أدب الرحلة وتطوره عند العرب

2- أدب الرحلة عند الجزائريين

1- أدب الرحلة وتطوره عند العرب:

مارس الإنسان العربي منذ الجاهلية ضروبا متنوعة من الترحال، بحثا عن الماء والكلاء، أو طلبا للتجارة، أو التماسا للراحة والأنس، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم من جهة، ونصوص الشعر الجاهلي من جهة ثانية، والتي توجد فيها إشارات واضحة على قيام الشعراء ببعض الرحلات، داخل الجزيرة العربية أو خارجها، فكثيرا ما كانوا يستهلون قصائدهم بالحديث عن الرحلة، وعن مشاقها وتفاصيلها في بعض الأحيان، وعن الناقة التي كانت وسيلة سفرهم،" إذ كانت الرحلة على الناقة الأمر الذي يلجأ إليه الشاعر ليسري عن نفسه ما تحمل من هموم"[1]، ولهذا تبقى الرحلة في القصيدة الجاهلية فضاءً واسعا للبحث والاجتهاد في النقد العربي الحديث. "ومع أنّ هذه الرحلات لم يدوّن منها شيء أكثر مما ورد في مضامين الشعر وكتب اللغة فيما بعد، إلاّ أنه لابُدّ أنّها أفادت العرب فوائد عملية في فتوحاتهم التي انطلقوا فيها إلى ما جاورهم من بلاد لهم بها سابق معرفة عن طريق هذه الرحلات وغيرها"[2]. وجاءت عملية الفتوحات الإسلامية خاصة مع توسعها في القرن الثاني للهجرة، حيث تم فتح عدة بلدان من الهند والصين إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس، ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان، فتوحدت بذلك هذه البلدان دينيا وثقافيا، وأصبحت عالما واحدا، وهذا ما أدى إلى كثرة الرحلات عند العرب وتنوعها وتباين اتجاهاتها مع مرور الأيام.

بدأ العرب في تأليف رحلاتهم، منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حين أُدمجت في المؤلفات التاريخية، أو كتب تقويم البلدان. أمّا التأليف للرحلة بمعناه الصحيح فكان في

[1] حسين نصار: أدب الرحلة، مكتبة لبنان الحديثة، ط1، القاهرة، 1991م. ص 100.

[2] حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب. ص 10.

بداية القرن الخامس(الحادي العشر الميلادي)[1]، ومع كثرة الرحلات وكثرة من ألّف فيها، أصبح من الصعب الإحاطة بها، وهذا ما يؤكده عبد القدوس الأنصاري بقوله:" أنه ليس بوسع دارس كتب الرحلات العربية أن يغض الطرف عن غير الرحلات السابقة، وليس بوسعه أن يتحدث عنها كلها لأنها أكثر من أن تحصى أو تحصر"[2]. وسنحاول أن نقف على أسماء بعض الرحالة، وأسماء مصنفاتهم على سبيل المثال لا الحصر، وهي كالآتي:

1-1-القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي):

نفتتح هذا القرن بكوكبة من الرحالة والجغرافيين، أبرزهم اللغوي هشام الكلبي صاحب مؤلفات عديدة، أهمها(كتاب الأقاليم) و(البلدان الصغير) و(البلدان الكبير) وكتاب (أنساب البلدان)، والأصمعي الذي ألف كتابا عن (الأنواء) والجاحظ ذلك العالم اللغوي الذي انعكست شخصيته الأدبية في مادته الجغرافية، له مصنف يحمل عنوان(كتاب الأمصار وعجائب البلدان)، وقد تحدث فيه عن صفات الحواضر الكبرى، وخصائص الأقاليم، وأصناف العجائب، ثم نلتقي بأحمد بن محمد الطيب السرخسي صاحب كتاب (المسالك والممالك)، والذي يعتبر" أول من استخدم هذا الاسم، الذي تكرر بعد ذلك وأصبح علما على(علم البلدان)"[3]، ثم يأتي بعد ذلك ابن موسى المنجم الذي قام برحلتين الأولى إلى آسيا الوسطى، والثانية إلى سد يأجوج ومأجوج رفقة سلام الترجمان هذا الأخير الذي قام برحلة إلى حصون جبال القوقاز، ليتفقد السد الذي بناه ذو القرنين، وذلك بأمر من الخليفة العباسي الواثق بالله ولكن سلام الترجمان لم يدوّن رحلته هذه،" كما أن المصادر التي

[1] أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون. ص 17.(بتصرف).

[2] عبد القدوس الأنصاري: مع ابن جبير في رحته، ط1، (د م)،1396هـ. ص 11.

[3] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي. ص 71.

تداولتها كالقزويني وياقوت والإدريسي وأبو حامد الأندلسي لم تكتب عنها إلاّ بعض مقتطفات " [1].

ثم نلتقي بعد ذلك بالتاجر سليمان، الذي جاب بلاد الصين والهند، وكشف عن الطريق البحري المؤدي إلى هذه البلدان، فوصف البحار التي اجتازها، والجزائر التي شاهدها، كما تحدث عن بلاد الهند والصين وعن حياة الناس وطباعهم ودياناتهم وغيرها من الأخبار، ومهما يكن من أمر هذه الرحلة، فإنها لم تصلنا في كتاب مستقل، وإنما وصلتنا من خلال كاتب عراقي يدعى أبا زيد السّيرافي.[2]

ومن الرحالة أيضا نذكر ابن وهب القرشي، الذي ارتحل من ميناء سيراف بالعراق إلى بلاد الصين، على متن مراكب هندية، وهناك التقى بالملك ودار بينهما حوار شيق، فأكرمه بمال واسع، وعاد إلى العراق وهو يحمل في جعبته الكثير من القصص والأخبار، تمثل هذه الرحلة المصدر الرئيسي الذي اعتمدت عليه قصص كثيرة من الأدب الشعبي، وخاصة ألف ليلة وليلة، وحكاية السندباد.

ونصل بعد ذلك إلى مجموعة أخرى من الرحالة،" الذين حرصوا على ما حصلوا من علم، فأودعوه بطون الكتب وهم يمثلون معا البداية الحقيقية لعلم البلدان"[3]، وأبرز من يمثلهم ابن خرداذبة صاحب كتاب(المسالك والممالك)، الذي وصف فيه الطرق والمسالك من بلاد العرب إلى الصين. ويليه في التأليف للرحلات، ابن رسته مؤلف كتاب(الأعلاق النفيسة)، وابن الفقيه صاحب كتاب(البلدان)، واليعقوبي مؤلف كتاب(تقويم البلدان) وغيرهم.

---

[1] أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون. ص 40.

[2] شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، ط4، القاهرة، (د ت). ص 29-33. (بتصرف)

[3] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي. ص 72.

1-2- القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي):

يعتبر هذا القرن عصر الاضمحلال والضعف السياسي للدولة الإسلامية من جهة، وعصر نضج الحضارة الإسلامية وتأصلها وازدهارها من جهة ثانية، وقد تمثل هذا الازدهار فيما يلي:

أ- "زيادة عدد الرحالة بشكل يفوق الوصف.

ب- ظهور خرائط للبلاد الإسلامية لأول مرة، وهوما يسمى(أطلس الإسلام).

ج- ظهور بعض المعاجم التي تضم أسماء الأقطار والأماكن المختلفة.

د- وصول الرحالة إلى آفاق بعيدة، خاصة الأصقاع الشمالية من العالم مثل حوض نهر الفولجا وبلاد الروس والبلغار وغيرها".[1]

يزخر هذا القرن بعدد هائل من الرحالة الكبار، أبرزهم المسعودي صاحب(مروج الذهب ومعادن الجوهر)، وابن فضلان الذي أرسله الخليفة المقتدر على رأس بعثة دينية إلى ملك البلغار، ليفقهه في الدين ويعلمه فروض الإسلام، وقد وضع ابن فضلان كتابا وصف فيه هذه الرحلة والذي نشره فيما بعد بعض المستشرقين.

ومن الرحالة أيضا أبودلف الخزرجى مسعد بن المهلهل، الشاعر والأديب الذي أوفده الأمير الساماني نصر بن أحمد مع بعثة أرسلها أحد أمراء الصين ليخطب ابنة أمير بخارى، ومن خلال هذه البعثة أتيح له زيارة العديد من البلدان ومن أهمها الصين.

ومن الذين ارتحلوا كمبعوثين لأداء مهمات رسمية، الرحالة ابن سليم الأسواني الذي بعث به القائد جوهر الصقلي إلى بلاد النوبة في مهمة دبلوماسية، وقد احتفظ لنا كل من المقريزي وابن إياس بشذرات من رحلته التي فُقدت.

[1] فؤاد قنديل، المرجع السابق. ص 73.

ومن مشاهير الرحالة أيضا في هذا القرن، أبوزيد البلخي والاصطرخي وقدامه بن جعفر وابن حوقل والمقدسي وأبو الحسن المهلبي وغيرهم، وقد ألّف كل واحد منهم كتابا، ولكن البعض منها يعتبر مفقودا حتى الآن.

1-3- القرن الخامس الهجري(الحادي عشر ميلادي):

يطل علينا في هذا القرن البيروني صاحب كتاب(تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) هذا الكتاب الذي ألّفه بعدما" قام بعدّة رحلات علمية في بلاد الهند والتي استقر فيها نحو أربعين سنة"[1]. ثم جاء بعده الطبيب البغدادي ابن بطلان، الذي قام بعدة رحلات بحثا عن المعارف والعلوم، ومن بين البلدان التي زارها الشام ومصر التي التقى فيها بالطبيب المصري ابن رضوان، وأنطاكية والقسطنطينية.

وفي منتصف هذا القرن تدخل منطقة المغرب الإسلامي دائرة المنافسة، فتستلم المشعل في هذا الفن بعدما كان قاصرا على المشرق الإسلامي، حيث يبرز في البداية الرحالة الأندلسي البكري صاحب كتاب(المسالك والممالك)، وكتاب(معجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبقاع).

1-4- القرن السادس الهجري(الثاني عشر الميلادي):

شهد القرن السادس الهجري نقلة كبرى في مجال الرحلة العربية، حيث عرف هذا الفن" تحولا في اتجاه الكتابة، من اعتناء بجغرافية البلدان وآثارها الحضارية، إلى اعتناء بسرد يوميات الرحالة، وذكر لكثير من خصوصياته، مشاعره، أفكاره، وانتقاداته، مع تحول في الطابع الأسلوبي للكتابة كذلك، إذ أصبح أسلوبا سرديا وقصصيا، يتسم بالبساطة والسلاسة"[2]

[1] حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب. ص 13.

[2] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري. ص 42.

نفتتح هذا القرن مع الرحالة الأندلسي أبوبكر العربي، الذي ترك إشبيلية في اتجاه المشرق في نحو السادسة عشر من عمره، وقد ألف كتابا بعنوان(ترتيب الرحلة)، تحدث فيه عن المناطق التي طاف بها، ويعتبر هذا الكتاب مفقودا حتى الآن.

وسرعان ما يبزغ فجر رحالة كبير، هو الشريف الإدريسي أكبر جغرافي في بلاد المغرب والأندلس، طاف بعدة أنحاء من العالم، كالمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى، وانتهى به المطاف في صقلية، أين إلتقى بأميرها(روجر الثاني Roi Roger II)، الذي طلب منه أن يؤلف كتابا له، فقام الإدريسي بتأليف كتابه الذائع الصيت(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، وقد وصف فيه العالم الإسلامي والعالم المسيحي في أوربا، كما تحدث فيه عن أحوال الأمم والسكان، وعن عجائب البنيان والآثار.[1]

ثم جاء بعده رحالة آخر، هو أبو حامد الغرناطي الأندلسي صاحب كتاب(تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)، وكتاب(المغرب عن بعض عجائب المغرب). ولن ننسى في هذا القرن أسامة بن منقذ أحد أبطال المعارك الصليبية، الأديب والشاعر، صاحب كتاب(الاعتبار) الذي ضمّنه أخبار حروبه وأسفاره وطرائف مشاهداته.

أمّا الرحالة الأندلسي محمد بن جبير فيعتبر أفضل من مثل الاتجاه الأدبي، وذلك من خلال رحلته المسماة(تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) المعروفة باسم(رحلة ابن جبير) التي ارتقى بها إلى مستوى أدبي رفيع، وأهّلها لأن تكون نموذجا يُحتذي به، من قبل كثير من الرحالة المغاربة والأندلسيين الذين جاءوا بعده.

[1] شوقي ضيف: الرحلات. ص 19،20.(بتصرف).

ونختتم هذا القرن مع علي الهروي، الملقب بالسائح نظرا لكثرة رحلاته، فقد طاف بمعظم بلاد العالم الإسلامي وبلاد الروم، وكان مولعا بزيارة أضرحة الأولياء الصالحين، خلّف لنا كتابا شيقا يحمل عنوان(الإشارات في معرفة الزيارات).[1]

1-5- القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي):

أهم ما يميز هذا القرن، هو صدور كتاب(معجم البلدان) لياقوت الحموي، هذا الكتاب الذي" امتاز بترتيبه على حروف الهجاء، وبدقته واتساعه وجمعه بين الجغرافية والتاريخ والعلم والأدب"[2]، فقد تضمن معلومات عن كافة أقطار العالم الإسلامي من جهة، وألقى الضوء على بعض المؤلفين وبعض المصنفات من جهة ثانية.

ومن أشهر الرحالة العرب في هذه الفترة من الزمان عبد اللطيف البغدادي، الذي تنقل بين مصر والشام والعراق،" فكانت رحلاته متعددة الأغراض، فهي ما بين رحلات سياحية ومشاهدة ورحلات تعارف ومحاورة، ورحلات علمية ورحلات سياسية للقاء الملوك والرؤساء"[3].

وقد نال شهرة واسعة بفضل مؤلفه المسمى(الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر)، ورغم صغر حجم الكتاب، إلاّ أنه يرصد وبدقة شؤون مصر العمرانية والاجتماعية والصحية أواخر القرن السادس الهجري، خاصة القحط والوباء الذين أصابا مصر بين عامي 597هـ – 598هـ .

---

[1] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي. ص 76.(بتصرف)

[2] زكي محمد حسين: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، (د ط)، بيروت، لبنان،1981م. ص 105.

[3] خضر موسى محمد حمود: أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2011م. ص 73.

ثم جاء بعده رحالة آخر، وهو خبيرا ممتازا بجنوب جزيرة العرب والحجاز الأوسط، إنه يوسف ابن يعقوب الدمشقي المشهور بابن المجاور صاحب كتاب(تاريخ المصتبر)، الذي وصف فيه جميع النواحي التي زارها، فوصف الطرق وأورد المسافات، وتحدث عن أخلاق السكان وعاداتهم، وسجل أساطيرهم ورواياتهم، ولسنا نغالي إذا قلنا بأن ابن المجاور يحتل المكانة الأولى فيما يتعلق بالملاحظات الإثنوغرافية (Ethnographie)، فكتابه توفر على مادة اثنوغرافية ضخمة، إضافة إلى المعطيات الطبوغرافية[1].

وفي النصف الثاني من هذا القرن صدر كتاب(عجائب المخلوقات) لزكريا القزوني، هذا الكتاب الذي لقي انتشارا واسعا وإقبالا كبيرا، وخير دليل على ذلك عدد الترجمات التي ظهرت وبلغات مختلفة، العربية والفارسية والتركية، بل امتدى صيته حتى بلغ روسيا في أواخر القرن السادس عشر[2]، وقد تحدث فيه عن كل ما هو عجيب وغريب في عالم المخلوقات كالجن والغيلان وغيرها، وهو بهذا يعتبر أكبر كوزموغرافي (cosmographie)عربي في العصور الوسطى.

وإذا اتجهنا إلى المغرب العربي، فسوف يطالعنا الرحالة المغربي محمد العبدري مؤلف (الرحلة المغربية) التي قام بها لسببين اثنين الأول: بغرض القيام بفريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، والثاني: بغرض لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم،[3] وقد عُني العبدري في رحلته بوصف البلدان التي مرّ بها، ومبانيها ومعالمها الأثرية، ووصف عادات السكان وتقاليدهم ومستواهم العلمي.

---

[1] اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج1. ص 349- 351.(بتصرف).

[2] المرجع نفسه. ص 363.(بتصرف).

[3] العبدري: رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، ط2، دمشق، 2005م. ص 10.(بتصرف)

ولن نعلق صفحة هذا القرن، دون أن نذكر الرحالة الأندلسي ابن سعيد صاحب عدّة مؤلفات منها(المغرب في حلى المغرب) و(المشرق في حلى المشرق)، والرحالة المغربي عمر رشيد النشريسي مؤلف(الرحلة)،وغيرهم من رحالة وجغرافيي هذا القرن، منهم من دوّن مشاهداته ونشرها، ومنهم من لم يحرص على تدوينها.

1-6- القرن الثامن الهجري (الرابع العشر الميلادي):

شهد هذا القرن ولوج بعض الكتاب عالم الكوزموغرافيا، ومن هؤلاء شمس الدين الدمشقي الذي حاول محاكاة سلفه القزويني فألّف كتابا بعنوان(نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) أمّا معاصره أبو الفداء، فكان مولعا بالرحلة والتاريخ والجغرافيا، خلّف لنا مصنفا في التاريخ يحمل عنوان(مختصر تاريخ البشر) المعروف أيضا ب(تاريخ أبي الفداء)، ومصنفا في الجغرافيا هو(تقويم البلدان) أو(جغرافية أبي الفداء)،الذي" سجل فيه بدقة ما شاهده في رحلاته وأضاف عليها مشاهدات من سبقه من الرحالة الجغرافيين"[1]، وقد نال هذا الكتاب شهرة عظيمة وتُرجمت نبذة منه إلى اللغات الأوربية.

ومن رحالة هذا القرن أيضا محمد بن رشيد الفهري، وهو رحالة مغربي صاحب كتاب (الرحلة الحجازية) التي رصد فيها الأوضاع الاجتماعية للبلاد التي زارها، فسجل انطباعاته وارتساماته عن تلك البلدان، كما ضمّن رحلته الكثير من تراجم العلماء والفقهاء والشيوخ الذين استمع إليهم أو استمعوا إليه.

ونلتقي أيضا بالرحالة التونسي عبد الله التجاني الذي سافر إلى الحج رفقة الأمير أبو يحي ابن اللحياني، وقد دامت رحلته هذه نحو عامين وثمانية أشهر، وخلال هذه الفترة دوّن التجاني أخبار رحلته في كتاب عُرف باسم(رحلة التجاني).

[1] أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون. ص 205.

وقد انتقلت الرحلة في الأدب العربي إلى مستوى عالمي أوسع على يدّ الرحالة المغربي ابن بطوطة، هذا المؤرخ والفقيه والقاضي الذي فاقت شهرته العالم الإسلامي، والذي جال في مناطق عديدة من حوض البحر الأبيض المتوسط وآسيا وإفريقيا، وكانت رحلته في البداية لأجل الحج، وعن هذا يقول:" كان خروجي من طنجه مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمئة، معتمدا حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام"[1]، ولكن استهوته الرحلة فيما بعد وسافر من بلد إلى بلد، وكلما قرّر العودة إلى دياره غلبه الشوق إلى سفر جديد، وبعد عودته إلى المغرب أملى أخبار رحلته على كاتب السلطان محمد بن جزي الكلبي، وأطلق عليه اسم(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) واختصر اسمها إلى(رحلة ابن بطوطة)، هذه الرحلة التي وصف فيها ابن بطوطة عادات وأحوال الشعوب التي زارها، ونقل كل ما هو عجيب وغريب وغير مألوف، ولهذا حظيت رحلته باهتمام كبير، فانكبّ عليها الباحثون من جميع أقطار العالم، وتُرجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية.

أمّا آخر الرحالة في هذا القرن هو العلامة الكبير عبد الرحمن ابن خلدون، الذي عُرف بسعة اطلاعه وكثرة معارفه، وتعدد أسفاره وتنقلاته، وقد نال شهرة واسعة بفضل مؤلفاته ومن بينها كتاب(التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا)، حيث كان اهتمامه الأكبر منصبا على الترجمة لنفسه، والتعريف بسيرة حياته الغنية بتنقلاته شرق وغرب البلاد الإسلامية، بينما شغلت رحلته المحل الثاني من حيث الأهمية، وبالتالي" بدأ المؤلف في الكتاب مؤرخا أكثر منه رحالة جاب أنحاء (الشرق والغرب)، إذ جاءت رحلته متضمنة في

[1] ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج1، المكتبة التجارية الكبرى،(د ط)، مصر، 1958م. ص 4،5 .

تاريخه، ومسيرة في سياق أحداثه التي عاشها في داخلها عن قرب أحيانا، وفي خارجها عن بعد أحيانا أخرى، فأخذت عليه جلّ اهتمامه، ومعظم عنايته"[1]، ومع ذلك لا يمكننا إنكاره ككتاب جيد يدخل ضمن أدب الرحلة العربية.

1-7- القرن التاسع والعاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلادي)

عرفت الرحلة العربية تراجعا ملحوظا خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين نظرا لتدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية للوطن العربي، ومن بين الرحلات التي شهدها القرن التاسع الهجري تلك التي اتجهت إلى المغرب والأندلس، والتي قام بها الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل الملطي صاحب كتاب(الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم)، هذا المصنف الذي يولي فيه صاحبه اهتماما خاصا برجال العلم الذين التقى بهم، ورصد فيه بعض الجوانب الاجتماعية السائدة في البلاد التي ارتحل إليها مع إيراد لبعض القصص والحوادث التي عاصرها، كما تناول فيه أيضا دراسة تاريخ الدول الإسلامية ولا سيما مصر وسورية.

ومن رحالة هذا القرن أيضا الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف باسم(ليون الإفريقي)، هذا الرحالة الذي عاش اضطرابات كثيرة في حياته خاصة بعد وقوعه في الأسر من طرف بعض القراصنة الذين ساقوه إلى إيطاليا حيث قُدم كهدية إلى البابا ليون العاشر، فقضى فترة طويلة يدرس اللغة العربية ويقوم بالتأليف، ومن بين ما خلّفه لنا كتاب(وصف إفريقيا)، الذي تحدث فيه عن إفريقيا وسكانها، ووصف عددا من المناطق التي زارها كمراكش وفاس وتلمسان وبجاية وتونس وطرابلس ومصر والسودان، كما وصف الأنهار

[1] حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب . ص 64.

والطيور والأسماك والحيوان والمعادن والنباتات الموجودة في إفريقيا، ولهذا تعتبر رحلته من رحلات المهمة في هذا القرن.

ونلتقي في القرن العاشر الهجري(السادس الميلادي) بالرحالة المغربي أبو الحسن علي بن محمد التمجروتي الذي أختير لرئاسة السفارة التي بعث بها المنصور إلى اسطنبول، فألّف في تلك الفترة كتابا بعنوان(النفحة المسكية في السفارة التركية)، وصف فيه بتفصيل كبير رحلته عبر البحر الأبيض المتوسط، فوصف اسطنبول ومبانيها ومساجدها، ومراكزها العلمية وحياة أهلها، كما ساق تفاصيل قيمة عن مراكش وعن استقبالات ملوكها ومواكبهم، إضافة إلى إيراد عدد من القصائد، ومع ذلك فالتمجروتي لم يجهد نفسه في التعريف بخط سير الرحلة شأنه في ذلك شأن معظم معاصريه.

وقد شهد هذا القرن أيضا ظهور عدد من الرحالة من المشرق العربي نذكر منهم بدر الدين محمد الغزي العامري صاحب(المطالع البذرية في المنازل الرومية)، ومحمد بن أحمد سكيكر الدمشقي الذي وصف رحلته من دمشق إلى إسطنبول في مصنف بعنوان(زبدة الآثار فيما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار)، وأحمد بن داود الحموي مؤلف(حادي الاظعان النجدية إلى الديار المصرية)، وحجيج بن قاسم الوحيدي الذي وضع كتابا باسم (الرحلة)، وهناك أيضا الرحالة قطب الدين النهروالي صاحب(الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية).

1-8- القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر ميلادي):

انتعشت الرحلة العربية وعادت إلى نشاطها المعهود في هذا القرن، ومن بين الأسماء التي برزت العياشي أبو سالم عبد الله بن محمد الذي دوّن رحلته تحت عنوان(ماء الموائد) المعروفة أيضا باسم(الرحلة العياشية)، وقد سجل فيها كل ما صادفه أثناء رحلته من أفكار ومعتقدات وأعراف وعادات وطقوس وممارسات، كما ترجم فيها لعدد من الأعلام وعرّف

ببعض الطرق الصوفية المنتشرة في كل الأقطار التي زارها، مع إيراده لجملة من النصوص والرسائل والإجازات والنقول والأشعار، ولهذا تعدّ موسوعة علمية من خلال مادتها الدسمة هذه[1].

ونلتقي أيضا بالرحالة المغربي أبوعبد الله محمد الوزير الغساني الذي ارتحل إلى اسبانيا على رأس وفد دبلوماسي، من أجل القيام بمهمة استرجاع الأسرى المراكشيين وعقد صلح بين الطرفين المغربي والاسباني، فتحدث عن أخبار رحلته في كتاب يحمل اسم(رحلة الوزير في افتكاك الأسير) وقد اهتم بوصف الأخلاق والعادات والنظم والرقصات الشعبية أكثر من اهتمامه بوصف المناظر الطبيعية، ولهذا يبدو كعالم اثنوغرافي واجتماعي، كما تحدث بتفصيل أكثر عن تاريخ إسبانيا الحديثة وعن سياسة أوروبا المعاصرة، وبوجه عام فكتابه لا يخلو من طرافة وفائدة.[2]

ثم هنالك محمد بن أبي قاسم الرعيني المعروف بكل من(القيرواني) و(ابن أبي دينار)، وهو رحالة تونسي وضع مصنفا بعنوان(كتاب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس)، الذي تحدث فيه عن تونس وعن إفريقيا منذ الفتح العربي لها إلى الفتح العثماني.

ولن نغفل عن ذكر أسماء بارزة في هذا الفن أمثال: "أحمد المقري صاحب(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)، وإلياس الموصلي الذي وضع كتابا بعنوان (السياحة)، وعبد الرحمن الحيارى المدني صاحب مصنف(تحفة الأدباء وساوة الغرباء) وغيرهم.

---

[1] أبو سالم العياشي: الرحلة العياشية، مج1، تح: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي، ط1. أبوظبي، 2006م. ص 13- 23. (بتصرف).

[2] أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج2. ص 732- 734.(بتصرف)

1-9- القرن الثاني عشر الهجري(الثامن عشر الميلادي):

واصلت الرحلة العربية نشاطها وحيويتها ومن الرحلات المهمة في هذا القرن هي تلك التي قام بها الرحالة السوري عبد الغني ابن إسماعيل النابلسي، حيث طاف بعدّة مدن كبغداد ولبنان والقدس والخليل ومصر والحجاز وطرابلس، وخلّف لنا عددا من الرحلات التي صنفها بطريقة منظمة وأطلق عليها الصغرى والوسطى فالكبرى، أمّا الصغرى فهي بعنوان(حلة الذهب والإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز)، والوسطى جعلها باسم(الحضرة الأنسية في الرحلة المقدسية)، أمّا الكبرى التي لقيت رواجا كبيرا فهي بعنوان(الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز)، إضافة إلى مصنف آخر وصف فيه رحلته إلى طرابلس وهو بعنوان(التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية). ومن سوريا أيضا يطل علينا كل من إلياس الغضبان الحلبي، وإبراهيم الحكيم الحلبي، ومرتضى بك بن مصطفى بن حسن الكردي صاحب مصنف(تهذيب الأطوار في عجائب الأمصار) وغيرهم من الرحالة الذين خرجوا من سوريا.

ثم نلتقي برحالة من أهل مكة وهو العباس بن علي بن نور الدين المكي الموسوي الحسيني، والذي ظلّ يتجول لمدة اثني عشر عاما، محتفظا بأخبار رحلته في كتاب يحمل عنوان(نزهة الجليس وأمنية الأديب الأنيس).

وهنالك رحالة آخر جائنا من العراق، هو عبد الله حسين السويدي صاحب كتاب(النفحة المسكية في الرحلة المكية)، الذي وصف فيه حجته وأورد فيه أخبار المناظرة الكبرى التي أقيمت بين علماء الشيعة، والنجف، وكربلاء، وعلماء السنة من أهل أفغانستان، وما وراء النهر، وكتابه هذا لا يخلوا من فائدة.

هذا وقد ترك لنا الرحالة المصري مصطفى أسعد بن أحمد بن محمد الدمياطي اللقيمي وصفا لرحلة من دمياط إلى القدس في مصنف خاص يحمل عنوان(موانح الأنس برحلتي لوادي القدس).

وإذا انتقلنا إلى المغرب العربي فسوف يطالعنا الرحالة أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي صاحب(الرحلة الناصرية)، وأبوراس محمد بن أحمد الناصري ورحلته(فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربّي ونعمته)، وابن القاسم بن أحمد بن علي الزياني الذي أنجز رحلة إلى اسطنبول جمع فيها أخبارا متنوعة في مختلف المواضيع ضمّنها كتابه(الترجمانة الكبرى)، وأحمد بن مهدي الغزال الذي ارتحل إلى إسبانيا في محاولة لإطلاق سراح الأسرى المسلمين، فسجل أخبار رحلته في كتاب بعنوان(نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد)، والذي يعدّ وثيقة تاريخية تقدم لنا لوحة جيدة لإسبانيا في القرن الثاني عشر الهجري.

ونختم هذا القرن مع الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني صاحب(الرحلة الورثيلانية)، المعروفة أيضا باسم(نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، والتي تعتبر من أحسن رحلات القرن الثاني عشر.

ومع حلول العصر الحديث وتحديدا بعد الحملة الفرنسية على مصر اتجهت الرحلات صوب الغرب، الذي كان في أوج الازدهار والتطور خاصة بعد الثورة الصناعية، وأول من سار في هذا الاتجاه رفاعة الطهطاوي الذي فتح المجال واسعا للرحلة بكتابة (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، فسارت على دربه كوكبة من الرحالة، الذي يتعذر علينا تتبعهم . فالمجال بالكاد يكفي لاستعراض مسيرة الرحلة العربية إلى غاية القرن الثاني عشر الهجري.

2 – أدب الرحلة عند الجزائريين:

قام الجزائريون كغيرهم من المغاربة بإنجاز رحلات عديدة، تنوعت بتنوع الأغراض والمقاصد، فكانت بعض رحلاتهم لغرض طلب العلم، ولقاء العلماء والمشايخ، وبعضها لغرض أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، والتي اقترنت في بعض الأحيان بأغراض أخرى، كالتجارة أو السياحة، ورغم قيام الجزائريين برحلات كثيرة، إلاّ أنّ اهتمامهم بكتابة هذه الرحلات كان قليلا جدا، مقارنة بالمغاربة الذين اهتموا بتدوين رحلاتهم، وحرصوا على نقل أخبارها وأحداثها، وهذا راجع حسب رأي الدكتور و المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله إلى عدم عودة عدد من العلماء الذين توزعوا في العالم الإسلامي إلى الجزائر، أمثال عيسى الثعالبي، ويحي الشاوي، وأحمد المقري، وأحمد بن عمّار وأضرابهم، فلو رجع هؤلاء لكتبوا رحلاتهم [1]، إضافة إلى غياب حس التدوين لدى البعض الآخر .

ولعل أقدم الرحلات الجزائرية في القرن الثامن الهجري، رحلة أبو القاسم بن يوسف التوجيبي التلمساني (670هـ– 730م) إلى مصر والحجاز، والتي تحدث فيها عن كل ما شاهده في هذين البلدين، فذكر الأسواق، والمدارس، والمساجد، والآثار العمرانية، والمواضع الشريفة، كما ذكر ما تيسر لقاؤه من شيوخ وعلماء القطرين، إلى جانب آدائه فريضة الحج.

وساق أحمد المقري، صاحب نفح الطيب، في أزهار الرياض رحلة لجده محمد المقري التلمساني شيخ لسان الدين الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون[2]، سمّاها(رحلة المتبتل) وهي

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي(1500– 1830)، ج 2، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت،1998م. ص 381، 382.(بتصرف)

2 المرجع نفسه . ص 382 . (بتصرف)

رحلة مشرقية "قصد منها القيام بالحج وطلب العلم،و قد زار خلالها حواضر العلم المشهورة ، كالقاهرة و دمشق و مكة ، وفي نفح الطيب أخبار كثيرة عن رحلة محمد المقري الجد"[1] .

ومن الرحلات أيضا رحلة تنسب إلى أحمد القسنطيني الشهير بابن الخطيب، وبابن القنفذ(740هـ- 809هـ)، المسمّاة(أنس الفقير وعزّ الحقير)، وهي رحلة قام بها إلى المغرب متنقلا بين ربوعه، ساعيا وراء الاتصال بالأولياء والصالحين وزيارة أضرحة المشاهير منهم، وبرجال التصوف، وذكر أخبارهم ومجاهداتهم[2].

وفي القرن التاسع الهجري يطل علينا أحد أعلام الجزائر وهو أبو عصيدة أحمد البجائي صاحب(رسالة الغريب إلى الحبيب)، وهي عبارة عن مراسلة مطولة بعث بها أبوعصيدة من الحجاز إلى صديقه أبي الفضل المشدالي بالقاهرة،" وضمّنها طرائف أدبية وشذارات علمية وأخبارا عن الرحلة، كما أنه عرض فيها لكتاب آخر له سمّاه (أنس الغريب وروض الأديب) وهو الآن مفقود"[3]، وقد نقل من خلال رسالته هذه أخبار رحلته من مصر إلى الحجاز، وعلاقته بأبي الفضل المشدالي، وببعض العلماء والأصحاب[4]

ورغم ما شهدته هذه الفترة من تزايد عدد رحلات الجزائريين خاصة إلى الحجاز غير أنّ التأليف في فن الرحلة بقي قليلا جدا، كما أن أغلب هذه الرحلات تعرضت للضياع، وبالتالي لم تصلنا أخبارها، إلاّ عن طريق كتب التراجم والسير، وروايات بعض المؤلفين

[1] سميرة أنساعد : الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري . ص 95 .

[2] ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير وعزّ الحقير، تصح: محمد الفاسي، أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، (د ط)، الرباط، 1965م، ص، ج، ز(المقدمة).(بتصرف)

[3] أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 4، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996م. ص 212.

[4] أحمد أبو عصيدة البجائي: رسالة الغريب إلى الحبيب، تص: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1993م. ص 20.(بتصرف)

والعلماء، والسبب في ذلك يعود ربّما إلى الاضطرابات السياسية، والحروب، والنكبات، وغيرها من الأحداث التي شهدتها المنطقة في القرن التاسع الهجري وما بعده.

وفي العقد الثاني من القرن العاشر الهجري(السادس عشر الميلادي) خضعت الجزائر جزئيا ثم كليا إلى الحكم العثماني، وفي هذه المرحلة عرفت الحركة الثقافية في بلادنا كسائر بلدان المغرب العربي مرحلة الضعف والتقهقر، بما فيها حركة الترحال، غير أنّ القرون الثلاثة الموالية شهدت انبعاثا، وازدهارا لفن الرحلة، حيث أصبح الجزائريون أكثر ميلا إلى الترحال، داخل الجزائر وخارجها، ويمكن تقسيم الرحلات خلال العهد العثماني إلى نوعين اثنين: رحلات حجازية وأخرى علمية.

2-1- الرحلات العلمية:

ويقصد بها تلك الرحلات التي قام بها أصحابها بغرض طلب العلم ولقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم، وممارسة التجارة في بعض الأحيان، ويمكن إيجاز من قاموا بهذا النوع من الرحلات فيما يلي:

أولا: عاشور بن موسى القسنطيني:

عُرف عاشور بن موسى القسنطيني بلقب الفكيرين، وهو لقب والده، وقد نشأ في قسنطينة حيث أخذ العلم على يدّ والده وغيره، بعد وفاة والده سنة 1054هـ شدّ الرحال لطلب العلم في عدة بلدان، من بينها المغرب الأقصى، والسودان التي لقي بها علماء أجلاء، ثم رجع بعد ذلك إلى بلاده، بعد غيبة دامت نحو العشرين عاما، ومكث بقسنطينة فترة من الزمن لكنه ارتحل عنها من جديد متجها إلى تونس، حيث استقر بها مدة وانتصب للتدريس بجامع الزيتونة، فكان يقص على تلاميذه غرائب ما شاهد وعجائب ما سمع، كما كان يكثر من الحكايات ويستحضر قطع الشعر، ومن تونس توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فوافته المنية بعد سنة 1074هـ.

وقد عُرف عن عاشور بن موسى القسنطيني شدة الفطنة والذكاء، وحسن الأخلاق والحديث والمجالسة، واشتهر بعلم النحو والصرف، كما كان عالما بالفلك، ورغم قدرته على التدريس والتأليف، ورغم كثرة رحلاته إلاّ أنه لم يترك لنا رحلة مكتوبة، وإن كان قد كتبها فلم نعثر عليها بعد، ولهذا تعتبر رحلة عاشور رحلة (مسموعة) وغير مقروءة حتى الآن[1].

ثانيا: عبد الرزاق ابن حمادوش:

ولد عبد الرزاق ابن حمادوش سنة 1107هـ(1695م) في مدينة الجزائر، تلقى بها تعليمه الأول على يدي بعض المشايخ، أمثال المفتي محمد بن نيكرو، والقاضي مصطفى بن رمضان العنابي، والقاضي محمد بن ميمون. نشأ في أسرة متوسطة تمارس حرفة الدباغة، فأبوه عُرف بالدباغ، تزوج في سن مبكرة من ابنة عمّه، ثم تزوج مرة ثانية من عائلة تحترف صناعة النحاس. ولكنه فشل في الزواج كما فشل في التجارة، وعلى العموم عاش عبد الرزاق بن حمادوش حياة مليئة بالفقر والضيق، حتى كان الفقر سببا في فشل زواجه الأول والثاني[2]

" اهتم بعلوم الدين واللغة مثل مثقفي عصره، ولكنه شذّ عليهم باهتمامه بعلوم العقل... مثل الطب والفلك والهندسة والصيدلة"[3]، وقد تنقل ابن حمادوش في العالم الإسلامي، فحج عدة مرات ورحل إلى المغرب الأقصى مرتين، الأولى سنة 1145هـ والثانية سنة 1156هـ، ثم عاد إلى وطنه، ولا ندري إلى حدّ الآن مكان وتاريخ وفاته، فبعض المصادر تشير إلى أنه عمّر نحو التسعين سنة.

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ص 383، 384.(بتصرف)

[2] المرجع نفسه. ص 225، 226.(بتصرف)

[3] أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ص 172.

كتب ابن حمادوش رحلته من مدينة الجزائر إلى المغرب تحت عنوان(لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والآل)، وقد وصف فيها الحياة العلمية، ورصد الثورات السياسية والتقاليد والعادات الاجتماعية، والتطورات الاقتصادية في المغرب الأقصى وبالتالي تعتبر هذه الرحلة مصدرا هاما عن المغرب في ذلك العهد.

بالإضافة إلى أخبار رحلته إلى المغرب فإنّ الجزائر احتلت مكانا بارزا فيها، فقد أورد أخبارا هامة عن أوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية خلال القرن الثامن عشر، فنجده يورد بعض أخبار الباشاوات من الولاة العثمانيين بالجزائر، ويتحدث عن بعض عادات أهل الجزائر، كصيغة الصلوات والدعاء، وبعض طقوس الزواج، كما لم يغفل عن ذكر الأخبار الثقافية وعلاقته ببعض علماء عصره الذين اعتاد الجلوس إليهم نذكر منهم، المفتي أحمد بن حسين، وقاضي قسنطينة محمد الحنفي، والمفتي عبد الرحمن المرتضى، وغيرهم[1].

ثالثا: محمد الزجاي:

هو محمد بن عبد الله الزجاي، أحد أعلام مدينة تلمسان، عاش منتصف القرن الثالث عشر الهجري، غلب عليه التصوف فالذين ترجموا له عدّوا له مجموعة من الكرامات، واعتبروه من زهاد العصر ومن علمائه أيضا، اشتهر بمهنة التدريس كما اشتهر بالتأليف، له عدّة مؤلفات في التفسير والنحو والتصوف، ففي النحو له شرحا على ألفية السيوطي، وعلى التسهيل لابن مالك، وعلى لامية الأفعال في التصريف، وعلى نونية صاحب الشذور ...الخ، وأغلب الظن أن هذه التأليف كانت موجهة إلى الطلبة، ولعل هذا ما تفسره تعاليقه على الكتب التي كان يتناولها في درسه.

[1] أبو قاسم سعد الله: "عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته(لسان المقال)"، مجلة مجمع اللغة العربية، مج 50، كانون الثاني 1975م، دمشق. ص 335- 338. (بتصرف)

قام بعدّة رحلات علمية زار الأزهر الشريف والمغرب الأقصى، قيل إنه صاحب(الرحلة الفاسية) التي لم يُعثر عليها، كما أنّ لا أحد تحدث عنها أو وصفها[1].

رابعا: عبد القادر المشرفي:

هو عبد القادر بن عبد الله المشرفي باحث، من فقهاء المالكية، اشتهر إضافة إلى العلم التقليدي، بالأخبار والتاريخ فكان اهتمامه بالتاريخ أكثر من اهتمامه بالأدب، اشتغل بالتدريس، ومن بين تلاميذه أبوراس الناصر صاحب رحلة(فتح الإله ومنته)،توفي سنة 1192هـ(1778م) ومن آثاره " بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر"

يقال بأنّ له(رحلة) مخطوطة بزاوية الهامل بالجنوب الجزائري ولكنها لم تقع بين أيدينا، ولا نعرف عنها أكثر من ذلك، ولسنا ندري ما إذا كانت هذه الرحلة مغربية أم مشرقية[2].

خامسا: الحاج ابن الدين الأغواطي:

الحاج ابن الدين الأغواطي أحد رجالات القرن الثالث عشر الهجري، كان معروفا بين أهل مدينة الأغواط، لكنه لم يكن معروفا على مستوى الجزائر في وقته، عُرف بقلة التعلم، فمعلوماته عن بعض أحوال العصر غير دقيقة، وكذلك كثرة الاطلاع، وهذا ما تدلّ عليه خبرته بالمناطق التي وصفها. من خلال اسمه(الحاج) نستطيع القول بأنه قام بأداء فريضة الحج، وزار بعض العواصم الإسلامية، وبعض المناطق في إفريقية، ولا نعرف إن كان قد زارها فعلا أم لا[3]، " فمعظم المدن والشعوب التي تحدث عنها ابن الدين غير معروفة معرفة

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ص 13، 164،19 . (بتصرف)

[2] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ص 303.(بتصرف)

[3] أبو القاسم سعد الله: مجموع رحلات، المعرفة الدولية،(د ط)، الجزائر، 2011م. ص 81،80.(بتصرف)

جيدة، بل إن بعضها لم يشر إليه أي رحالة أو جغرافية أوروبي من قبل حتى ليون الإفريقي نفسه لم يذكرها"[1].

كتب ابن الدين رحلته سنة 1242هـ والتي زار من خلالها مناطق داخل الوطن وخارجه، وقد تُرجمت إلى لغات عدّة، حيث قام بترجمتها إلى الإنجليزية وليام هودسون، كما ترجمها السيد دافيزاك إلى الفرنسية [2].

وهكذا تحدث الحاج ابن الدين في رحلته هذه عن الصحراء وواحاتها وعادات أهلها، وعن جزء من الجزيرة العربية وإفريقية، ومن المناطق التي ذكرها في رحلته: الأغواط وتجمعوت وعين ماضي، وجبل عمور، ومتليلي، ووادي ميزاب، والمنيعة، وورقلة، وتيميمون، وعين صالح، وتجرت، ووادي سوف، وشنقيط، وغدامس، وقابس، وجزيرة جربه، والدرعية(الجزيرة العربية).

2-2- الرحلات الحجازية:

حظيت الرحلات بجانب أوفر من اهتمام الجزائريين، ذلك أنّ توجه الجزائريين نحو الحجاز تلك الأرض الطاهرة التي تظم تاريخ الوحي والدعوة الإسلامية كان نتيجة توق روحي يشدهم إلى تلك البقاع المقدسة التي وطئتها أقدام الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام، لذلك" كانوا يسجلون عواطفهم المتأججة لرؤية الحجاز وأهله والتبرك بترابه وهوائه"[3].

وقد قام بعض الرحالة الجزائريين بكتابة رحلاتهم الحجازية، فوصفوا أحاسيسهم الفياضة، وسجلوا انطباعاتهم عمّا شاهدوه وسمعوه، ليس في الحجاز فقط بل في مختلف المدن والأمصار التي مرّوا بها، ومن بين الرحلات الحجازية ما يلي:

---

[1] عمر بن قينة: الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، اتحاد الكتاب العرب، (د ط)، دمشق، 1999م. ص 15،16.

[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2. ص 386. (بتصرف)

[3] المرجع نفسه. ص 387 .

أولا: رحلة المقري:

يعرف المقري بأبي العباس أحمد بن محمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش المقري التلمساني، ولد بمدينة تلمسان سنة (986هـ-1572م) ، تلقى تعليمه الأول على يدّ بعض الشيوخ ، من بينهم عمّه أبي عثمان سعيد المقري ، الذي أسهم في تكوينه .

تنقل أحمد المقري بين مدن المغرب الأقصى ، كفاس التي زارها سنة 1009هـ ، و اشتغل فيها بالتدريس ، ثمّ انتقل إلى مراكش في نفس السنة ، وفيها التقى ببعض العلماء و الأدباء ،وفي سنة 1010هـ عاد إلى مسقط رأسه تلمسان ، حيث مكث بها سنتين، و في أوائل سنة 1013هـ رجع إلى فاس مرّة ثانية ، و تولى فيها عدّة مناصب كالقضاء و الفتوى و الخطابة في جامع (القرويين)[1] . وفي أواخر عام 1027هـ خرج للحج، بعد" أن استأذن ملك المغرب آنذاك، وهو أبو محمد بن عبد الله الغالب بالله بن محمد الشيخ المأمون، وقد أذن له بذلك"[2]، وبعد أدائه فريضة الحج، عاد إلى القاهرة سنة 1029هـ، بقي فيها نحو شهرين، ثم دخل القدس الشريف والشام، والحجاز التي تكررت رحلاته إليها.

استطاع أحمد المقري أن يحقق شهرة واسعة بين الناس، سواء من خلال تدريسه لمختلف العلوم كالحديث والتفسير والفقه والأدب، أومن خلال مؤلفاته العديدة والمتنوعة، ففي المغرب ألّف(أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض) و(الجنابذ فيمن لقيته من الجهابذ) و(روض الآس العاطرة الأنفاس فيمن لقيت من أعلام الحضرتين مراكش وفارس) وألّف في المدينة المنورة(فتح المعتال في مدح النعال) و(الأزهار الكمامة في أخبار العمامة ونبذ ملابس المخصوص بالإسراء والغمامة) وألّف بمصر(نفح الطيب من غصن الأندلس

[1] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية ، ط2 ، بيروت-لبنان ، 1980م. ص 309، 310.(بتصرف)

[2] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري. ص 65.

الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)، إضافة إلى بعض القصائد والموشحات، توفي في شهر جمادى الآخرة سنة 1041هـ بالقاهرة ودفن بمقبرة المجاورين[1].

تعدّ رحلة أحمد المقري أولى رحلات القرن الحادي عشر للهجرة، وقد ألّفها تحت عنوان (رحلة في المشرق والمغرب)، وفيها يُبرز جوانب هامة من حياته الشخصية والعلمية، ويعالج فيها الحياة الثقافية والأدبية في عصره، وبعض القضايا الفقهية والأدبية، كما ضمّنها في الوقت نفسه معلومات تاريخية عن بلاد المغرب والحجاز واليمن.[2]

مع أنّ الرحلة هي عبارة عن مخطوط مخروم البداية والنهاية، إلاّ أنّ هذا النقصان لم يُحدث خللا في الموضوع، فالمؤلف لا يعتمد ترتيبا دقيقا في سرد أحداث الرحلة، وإذا كان هذا المخطوط يتناول رحلات المقري في المغرب والمشرق، فإننا نجد بعضا من أخبار رحلاته أيضا في مؤلفه المشهور" نفح الطيب" ويرد ذلك في مقدمة الجزء الأول منه[3].

ثانيا: رحلة البوني:

صاحب الرحلة أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي التميمي البوني، ولد ببونه المعروفة بعنابة في الشرق الجزائري سنة 1063هـ(1652م)، من كبار علماء الحديث والفقه المالكي[4]، رحل إلى المشرق ومكث به فترة من الزمن، لاسيما مصر والحرمين وتونس.

تعلم على يدّ عدد من العلماء من بينهم: الشيخ عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، والإمام الشاوي، والعلامة الخرشي، والشيخ الأجهوري وغيرهم، ثم عاد إلى الجزائر وتخرج على يده

---

[1] عادل نهويض: معجم أعلام الجزائر. ص 310. (بتصرف)

[2] أبي العباس أحمد المقري: رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، (د ط)، الجزائر، 2004م. ص 9.(بتصرف).

[3] سميرة أنساعد:" صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني"، مجلة التراث العربي مجلة شهرية، ع د: 97، مارس 2005م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق. ص 108.(بتصرف).

[4] عادل نهويض: معجم أعلام الجزائر. ص 49.(بتصرف)

جماعة من العلماء منهم عبد القادر الراشدي القسنطيني صاحب المعقول والمنقول، من آثاره الكثيرة فتح الإغلاق على وجوه مسائل مختصر خليل بن إسحاق، وفتح الباري بشرح غريب الإمام البخاري، والإلهام والانتباه في رفع الإبهام والاشتباه، والثمار المهتصرة في مناقب العشرة، والإعانة على بعض مسائل الحصانة...إلخ[1].

إضافة إلى رحلته المسمّاة(الروضة الشهية في الرحلة الحجازية)،وتعد أول رحلة حجازية تكلمت عنها المصادر التاريخية،" وقد ذكر أحمد الزروق نجل البوني، الذي أصبح بعد والده من العلماء البارزين في عنابة، أنّ والده قد تحدث عن شيوخه في رحلته الحجازية، وعددهم يزيد عن العشرين شيخا، وقد نصح أحمد زروق القارئ بقراءة هذه الرحلة بقوله:" فعليك به (أي التأليف) فإنّ فيه طرفا وظرفا"[2].

ومع ما تحمله هذه الرحلة من أهمية فهي تعتبر من الرحلات المفقودة وأغلب الظن أن البوني تناول فيها المسالك والطرق التي مرّ بها، ونحو ذلك من الأخبار والمشاهدات، وهذا ما تؤكده عبارة(طرفا وظرفا).

ثالثا: رحلة ابن عمار:

أمّا الرحلة الموالية فهي رحلة ابن عمّار المسمّاة" نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب" وصاحبها هو أبو العباس أحمد بن عمّار الجزائري العالم الفاضل مفتي مالكية الجزائر، ولد بمدينة الجزائر، قام بأداء فريضة الحج سنة 1166هـ، وجاور بالحرمين إلى ما بعد سنة 1172هـ[3]. تنقل بين مصر وتونس ومكة المكرمة التي زارها عدة مرات وأجاز فيها محمد خليل المرادي، من آثاره التي ذكرت عنه كتابه (لواء النصر في علماء العصر)،

[1] أبي القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، بيير فونتانة الشرقية،(د ط)، الجزائر، 1906م. ص 516- 518. (بتصرف)

[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2. ص 390.

[3] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ص 97.(بتصرف)

الذي ترجم فيه لجملة من علماء القرن الحادي عشر والثاني عشر، اشتهر برحلته الحجازية الآنفة الذكر، وقد قسّمها ابن عمّار إلى ثلاثة أقسام: مقدمة وغرض مقصود وخاتمة، ففي المقدمة التي هي الجزء الوحيد الموجود من الرحلة وصف أشواقه للبقاع المقدسة وللرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام، كما تحدث فيها عن الموشحات المولدية والمدائح النبوية، وعادات الجزائريين أثناء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وتناول في الجزء الثاني وهو الغرض المقصود أخبار رحلته من الجزائر عبر تونس وطرابلس ومصر إلى الحجاز والعودة، وهذا الجزء من الرحلة مفقود شأنه شأن الجزء الأخير(الخاتمة) . وأغلب الظّن أن ابن عمّار قد أكمل رحلته هذه، وذلك يعود لسببين اثنين: الأول أنّ ابن عمّار عاش حوالي أربعين عاما بعد حجّته سنة 1166هـ، فلا يمكن من الناحية النظرية أن لا يكمل رحلته خلال تلك المدّة، والثاني أنّ وصف أبوراس لابن عمّار بقوله(مؤلف الرحلة) دليل على أنّ ابن عمّار قد أكمل رحلته[1].

رابعا: رحلة الورثيلاني

صاحبها هو الرحالة الجزائري الحسين بن محمد السعيد المعروف بالورثيلاني، ولد بقرية بني ورثيلان سنة 1125هـ(1713م)، نشأ وتعلم بها فدرس الفقه والنحو والبلاغة والتوحيد والتصوف، عُرف برحلاته الكثيرة داخل الوطن وخارجه، تعددت أغراضها بين حج وجهاد وزيارة وعلم وتعلم، وقد زار الورثيلاني خلال رحلاته خارج الوطن كل من تونس، وطرابلس، ومصر، والحجاز، فالتقى بعدد من العلماء الأجلاء أمثال الشيخ محمد الحفناوي والشيخ البليدي والشيخ العمروسي، والشيخ علي الصعيدي وغيرهم، ثم عاد إلى وطنه، فمكث فيه مشتغلا بالتدريس والتأليف إلى أن وافته المنية في رمضان من عام1193هـ(1779م)[2]

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2. ص 391، 392. (بتصرف).

2 مختار بن طاهر فيلالي: رحلة الورثيلاني عرض و دراسة، دار الشهاب، (د ط)، باتنة الجزائر، (د ت) .ص15 .

مخلفا لنا عدّة مؤلفات وشروح من أشهرها كتاب (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) المعروفة باسم (الرحلة الورثيلانية)،وله شرح على(المنظومة القدسية) للإمام سيدي عبد الرحمن الأخضري، وشرح على وسطى الإمام السنوسي، وشرح على محصل المقاصد للإمام أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني، وحاشية على حاشية المحقق السكتاني التي وضعها على شرح السنوسي.[1]

وتعدّ رحلة الورثيلاني من أهم الرحلات الجزائرية التي تضمّنت أخبارا عن أوضاع الوطن العربي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، وقد ألّف الورثيلاني رحلته هذه سنة 1181هـ(1767م) راميا إلى غايات شتى من بينها الاهتمام بعلم التاريخ الذي يراه بالغ الأهمية كذلك لينفض الغبار على كثير من الشخصيات، إذ لابّد من وضع تراجم لحياتهم وسلوكهم ليتعرف القراء عليهم وعلى آثارهم، خاصة مع انعدام المؤلفات من هذا النوع في بلده.

ولأجل ذلك قال الورثيلاني: " أنشأت رحلة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الاحكام الشرعية..."[2]، وقد اعتمد فيها على مصادر كثيرة كرحلة أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي المعروفة بالرحلة النّاصرية، وكتاب (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) للسيوطي، وكتاب(عقود الجمان في أخبار الزمان) لمحمد الشاطبي وغيرها من الكتب[3].

[1] – الحسين بن محمد الورثيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 2008م. ص 5.

[2] المرجع نفسه: ص 12، 13.

[3] مختار بن طاهر فيلالي: رحلة الورثيلاني . ص 56، 57.(بتصرف)

خامسا: رحلة أبوراس:

ولد محمد أبوراس بن أحمد بن عبد القادر بن النّاصر المعسكري، المعروف بأبي راس النّاصر سنة 1150هـ(1757م) قرب جبل كرسوط بنواحي مدينة معسكر، ذاق مرارة الجوع وألم اليتم، إذ توفيت أمّه ثم أبوه، فكفله أخوه الأكبر عبد القادر، الذي سافر به إلى المغرب، وهناك حفظ القرآن الكريم وتعلم الأحكام ثم الفقه، عاد إلى الجزائر واشتغل بالتدريس، ثم تولى القضاء في قرية غريس، ورجع إلى معسكر ليزاول التدريس بها لمدة ست وثلاثين عاما[1].

درس أبوراس على مشايخ كثيرين منهم: عبد القادر المشرفي، وأحمد بن عمّار مفتي مدينة الجزائر، ومحمد مرتضى الزبيدي الذي خصّه بكتاب سمّاه(السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ المرتضى)[2].

تنقل أبوراس بين عدّة مدن في أنحاء القطر الجزائري من غربه إلى شرقه، فتجول في المغرب الأقصى وتونس ومصر والشام والحجاز التي زارها مرتين لأداء فريضة الحج، الأولى سنة 1204هـ والثانية 1226هـ. وفي هذه البلدان بلغت شهرته أقصاها إذ عُرف بكثرة الحفظ وسعة العلم وهذا ما جعل الطلبة يزدحمون على مجلسه حتى أنه لقب في مدينة فاس بـ(الحافظ)[3].

وبعد عودته إلى الجزائر اشتغل أبوراس بالتأليف إلى حين وافته المنية سنة (1238هـ 1824م)، من أشهر تأليفه(عجائب الأسفار ولطائف الأخبار)،(الحلل الحريرية في شرح

[1] محمد أبوراس الجزائري: فتح الإله ومنته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ط)، الجزائر، 1990م. ص 18- 22 .(بتصرف).

[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2. ص 378.

[3] محمد أبوراس الجزائري: فتح الإله ومنته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته . ص 24.

المقامات الحريرية)، (فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته)[1]، وقد قسّم أبي راس رحلته إلى خمسة أبواب، تحدث في الباب الأول عن طفولته وتعلمه وحالة أسرته وزواجه وحجاته وسمّاه (في ابتداء أمري)، والباب الثاني خصّصه لذكر شيوخه والعلماء الذين التقى بهم وسمّاه(في ذكر أشياخي النافضين عنّي قشب أوساخي: شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة)، والباب الثالث خاص برحلاته شرقا وغربا، ولعل هذا الباب هو الذي أطلق عليه(حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي)، وهو بعنوان(رحلتي إلى المشرق والمغرب وغيرهما ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام)، الباب الرابع تناول فيه الأسئلة التي وردت إليه أثناء تنقلاته كما ذكر الأجوبة عليها وقد سمّاه(في الأسئلة وما يتعلق بها)، أمّا الباب الأخير فهو في تعداد تأليفه مرتبة حسب موضوعاتها، وعنوانه(العسجد والإبريز في عدّة ما ألّفت بين بسيط ووسيط ووجيز).

اقتدى أبوراس في كتابه رحلته بالجهابذة النّحارير كالإمام ابن رشيد السّبتي، والخطيب ابن مرزوق، والشيخ أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي، وأحمد الناصر الدرعي.

ويبدو أن(فتح الإله) هو عبارة عن رحلة تقدم لنا حياة أبي راس نفسه، فهي نوع من السيرة الذاتية تحدث فيها المؤلف عن أهله وبيئته وشيوخه وعلومه ورحلاته، وتكمن أهمية هذه الرحلة في الكشف عن أمور هامة عن علماء العصر والعلاقات السياسية بين بعض الدول العربية، كما تكشف عن المستوى العلمي السائد، وبعض أخبار المذاهب الدينية.[2]

سادسا: رحلة عبد القادر الجزائري

شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر ميلادي)، بروز نهضة فكرية وثقافية وأدبية، في مختلف أقطار الوطن العربي، وفي الجزائر بالتحديد برزت

[1] محمد أبوراس الجزائري ،المرجع السابق. ص 182.

[2] المرجع نفسه: ص 7.(بتصرف).

شخصية الأمير عبد القادر، رائد النهضة الأدبية، ويعدّ من الذين قاموا برحلات عديدة في كثير من دول المشرق العربي.

هو عبد القادر بن محي الدّين بن مصطفى بن محمد بن المختار، من آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولد سنة 1222هـ(1808م) بقرية القيطنة قرب وهران، نشأ في أسرة تتمتع بقدر كبير من العلم والدين، تلقى تعليمة الأول بإحدى المدارس الموجودة في قريته، سافر إلى وهران لاستكمال علومه، وفي سنة 1241هـ سافر رفقة والده إلى الحجاز، حيث قام بأداء فريضة الحج وهو في سن مبكّرة، فكانت رحلته الى تونس ومصر، ودمشق، وبغداد، ثم رجع إلى الحجاز ليحج مرة ثانية، وأخيرا عاد إلى الوطن، وفي سنة 1248هـ بايعه أهل الجزائر وولّوه أمرهم، وخلال تلك الفترة ظلّ يقاتل ببسالة الاحتلال الفرنسي إلى أن ضعف أمره، فقرر الاستسلام سنة 1263هـ ونفي إلى طولون، ومنها إلى أنبواز حيث أقام بها أربع سنين وستة أشهر، وعندما أطلق سراحه توجه إلى تركيا التي حظي فيها باحتفال عظيم، ومنها إلى دمشق، وحج مرة أخرى سنة 1279هـ ثم توجه إلى الآستانة، وعاد بعد ذلك إلى الشام ليستقر بها حتى وافته المنية سنة 1300هـ(1883م)، من آثاره كتاب في التصوف يسمى (المواقف)، ورسالة في العلوم تسمى(ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)، وديوان من الشعر وغيرها من المؤلفات[1].

قام الأمير عبد القادر بتدوين أخبار رحلاته، ضمن مذكراته التي تروي سيرته الذاتية ، تلبية لرغبة بعض المهتمين به ، و هذا ما يأكده في قوله :"وبعد فإنّ بعض أساقفة النصارى طلب كتابا مضمنه تاريخ ما جرى بيننا و بينهم بالقطر الجزائري من مصالحة و

[1] أبي القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2. ص308-313.(بتصرف)

مكافحة ببيان سبب كل واحد من الأمرين" [1]، ويبدو أنه قد كتب مذكراته بمساعدة صهره مصطفى بن التهامي .

والمهم أنّنا نستطيع من خلال هذه المذكرات، التعرف على حياته الشخصية ومسيرته النضالية وأخبار رحلته إلى الحجاز والشام وبغداد، وأشهر العلماء الذين لقيهم، وبعض انطباعاته وآراءه حول البلدان التي زارها.

هذه كانت نبذة عن أهم الرحلات التي أنجزها الرحالة الجزائريون خلال العهد العثماني، أمّا عن الرحلات الجزائرية في العصر الحديث فهي متعددة ومتنوعة، اختلفت من كاتب إلى آخر سواءً من حيث مستويات التعبير وطرائقه، أومن حيث الاهتمامات والمشارب والمقاصد، ويبدو أن معظم رحلات العصر الحديث قام بها في الغالب رجال الحركة الإصلاحية، أمثال عبد الحميد ابن باديس والبشير الإبراهيمي والطيب الهاجي وغيرهم، والواقع أنّ هذه الرحلات لا تدخل ضمن موضوعنا الذي يقتصر فقط على أبرز الرحلات في العهد العثماني.

[1] عبد القادر بن محي الدين: مذكرات الأمير عبد القادر، تقد: عبد المجيد مزيان، شركة الأمّة، ط3، الجزائر، 1998م.ص33.

الفصل الثاني

البنية السردية في رحلة الورثيلاني

1- بنية الشخصيات.

2- بنية الزمان.

3- بنية المكان .

1- بنية الشخصيات:

تعدّ دراسة الشخصية من المواضيع الأساسية التي خاض فيها النقاد والباحثين، فذهبوا مذاهب مختلفة ومتنوعة، نابعة من خلفيات فكرية وإيديولوجية محددة، وكانت النتيجة أن ظهرت مفاهيم متعددة للشخصية، فأصحاب الاتجاه التقليدي ينظرون إلى الشخصية على أساس أنها كائن حي له وجوده، وذلك بالاعتماد على صفاتها ومظهرها الخارجي، ممّا جعلهم يخلطون بين الشخصية الروائية والشخصية في الواقع الحياتي[1]، أمّا أصحاب الاتجاه النقدي الجديد فقد ركزوا أكثر على وظائفها والأدوار التي تقوم بها ضمن بنية النص، هذا التوجه الجديد في دراسة الشخصية لم يظهر إلاّ في بداية القرن العشرين مع الشكلانيين الروس، وتعدّ البحوث التي قام بها كل من غريماس، وفلاديمير بروب، وتودوروف، وفيليب هامون، من أهم الدراسات فيما يخص تحليل النص السردي.

ويعتبر فيليب هامون من أهم المنظرين السيميائيين الذين اهتموا بهذا المكوّن الروائي، فالشخصية عنده أقرب إلى اللسانيات، إذ يحددها وفق منطلقات لسانية بحتة، ويعتبرها علامة تتقاطع في أمور كثيرة مع العلامات اللسانية كونها دالا ومدلولا، ومن ثم تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها هذه الأخيرة [2].

ويصنف فيليب هامون الشخصيات إلى ثلاث فئات:

أ- الشخصيات المرجعية: وتضم الشخصيات التاريخية والاجتماعية والأسطورية والمجازية.

ب- الشخصيات الواصلة: وتكون علامة على حضور المؤلف والقارئ أومن ينوب عنهما في النص.

[1] حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط1، دار البيضاء 1991م. ص 50. (بتصرف)

[2] بشير عبد العالي: تحليل الخطاب السردي والشعري، دار الغرب، (د،ط)، الجزائر، 2002م. ص 53، 54. (بتصرف)

ج- الشخصيات المتكررة: فالشخصيات تنسج داخل الملفوظ شبكة من الاستدعاءات والاستذكارات لمقاطع من الملفوظ منفصلة وذات طول متفاوت[1].

بعد هذه الوقفة السريعة مع الشخصية وتصنيفها، ننتقل إلى دراسة هذه الشخصيات في رحلة الورثيلاني، والواقع أنّ هذا اللون (الرحلة) يختلف كثيرا عن سائر الألوان الأدبية كالرواية والقصة، فالرحالة يجد نفسه ملزما على تحري الصدق في كل ما ينقله من أخبار وأحداث ومشاهدات في رحلته، ممّا يجعل مساحة الخيال ضئيلة جدا، وبالتالي "ينحصر عمل كاتب الرحلة في كيفية تقديم الشخصيات وتصويرها، من خلال أفعالها وأقوالها ووصفها من الخارج ومن الداخل، وفي تقديم الكتّاب لذواتهم، وهي تتحرك وتتكلم، وهي تفكر وتنفعل وتتأثر"[2]، ولهذا اقتضت طبيعة الدراسة أن نصنف الشخصيات على النحو التالي:

1-1- شخصية الذات الراحلة:

استعان الورثيلاني في معرض تقديمه معارف عن الذات، بجملة من الأساليب والوسائل المتنوعة، كالوصف الذي "يعتبر من المكونات الأساسية في النص الرحلي، وأساسا في مجال تشكيل الصورة التي تساعد على فهم آليات رسم صورة الآخر والآنا "[3]، والسرد الذي يعدّ من أهم الوسائل التي يعتمدها الكاتب لنقل الأحداث والوقائع، وكذا الأقوال والأفعال، ومن هنا تتجلى لنا بعض صفاته وخصائصه المعنوية (الفكرية والنفسية)، أمّا المادية (الجسمانية) فهي نادرة جدا في هذا النص الرحلي. ومن خلال دراستنا لهذه الشخصية، يبدو لنا أنها شخصية رئيسية احتلت مساحة كبيرة في النص الرحلي، وهي شخصية فاعلة سواء من خلال تأثيرها بنسبة ما في مجريات الأحداث، أومن خلال علاقتها بالشخصيات الأخرى ومدى تفاعلها بها.

---

[1] حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصيات)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1990م. ص 217 .

[2] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري. ص 177.

[3] شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي. ص 302.

وقد تجلت شخصية الورثيلاني (الذات الراحلة) كشخصية مثقفة تتمتع بمقدرة علمية كبيرة، ولعل ما يؤكد ذلك تلك الحلقات الدراسية التي كان يعقدها، وحرصه على لقاء العلماء والاستفادة منهم، وأمثلة ذلك في النص:

"... كنت كل عام أصوم رمضان فيها نأويا للرباط مع تعليمي الطلبة..."[1]

"... شاع أمري ذلك اليوم في مدينة صفاقس فصار الطلبة يخرجون إلى الخيمة يقصدون الاستفادة في العلم..."[2]

ومن لقاءاته الكثيرة مع العلماء والفقهاء قوله: "... وقد زرنا في هذه الحجة شيخنا الفاضل... محمد الحفنأوي، والشيخ الصالح... الجوهري، وزرت أيضا من بالأزهر من العلماء والطلبة وغيرهم..."[3]

وما يبرز أيضا مكانته العلمية، تلك الإجازات العلمية الكثيرة، التي تلقاها من طرف عدد من العلماء داخل الوطن وخارجه، وما يؤكد ذلك قوله: "... وزرت أيضا الشيخ العلامة... شيخنا الملوي وقد أجازني في سائر العلوم..." [4]، وقوله أيضا: "وممن زرته أيضا وحضرت مجلسه... شيخنا سيدي علي الصعيدي وقد أجازني بخط يده في جميع العلوم..."[5].

وفي مواضع كثيرة تظهر الذات الراحلة كشخصية دينية متصوفة، والمتتبع لرحلة الورثيلاني يجد صفحات كثيرة خصّها للحديث عن بعض الأفكار الصوفية، كتبنيه لفكرة الزهد التي تعتبر من الأفكار الأساسية التي يقوم عليها التصوف الإسلامي، ونستنتج هذا من قوله: "حاصله أن كثرة المذاق، توجد للقلب النفاق، وقلة الأرزاق تيسر الطريق إلى الله

---

[1] الحسين الورثيلاني: نزهة الأنظار. ص 31.

[2] المرجع نفسه. ص 756.

[3] المرجع نفسه. ص 338.

[4] المرجع نفسه. ص 341.

[5] المرجع نفسه. ص ن .

بالاتفاق..."[1]، وكذلك فكرة الحلول، ووحدة الوجود، التي تجعل من المتصوف يحس بأنه قد ذاب عشقا في محبوبه الأسمى، وفني فيه، واتحد به، ومثال ذلك قوله: "... فمن شاهد من الحق تجلي الأفعال اضمحلت أفعاله لأفعاله وكذا تجلى الحق عليه بأوصافه اضمحلت أوصافه لأوصافه، ومثله تجلي الذات فمن تجلى الحق عليه بأوصافه اضمحلت ذاته فلم يبق لسواه أثر فهذا مقام المحو والفناء..."[2]، إضافة إلى فكرة الولاية والتي تبرز من خلال زيارة أضرحة الأولياء الصالحين والتبرك بهم، وذكر كراماتهم وتعظيمهم، وعدم التعرض لهم، فنجده يحذر المخالفين لهم في قوله: "إياك أن تتعرض لأحد من أهل الله ممن ثبتت له الخصوصية من الأولياء في زمانك فيما فيه الوسع شرعا فتتزل قدمك بعد ثبوتها... هم أبواب الله والله يقول وأتوا البيوت من أبوابها فمن اعترض أحدا بحظ نفسه رد عن باب الله وكان مطرودا بين العباد..." [3]

ونجد الرحالة أيضا شخصية اجتماعية، يخاطب العامة والخاصة من السلاطين والولاة إلى الدراويش والمرابطين والبله من الناس، وفي هذا يقول: "... وزيارة الفضلاء فيها الأحياء والأموات على سبيل الجملة والتفصيل من غير تخصيص عن العامة والخاصة والأفاضل والأوباش من النساء والرجال..." [4]، إضافة إلى مساعدة الضعفاء وحمايتهم، وذلك بمساعدة بعض رفقائه، ومثال ذلك قوله: "... من عادتي أتأخر مع الفضلاء سيدي أحمد الطيب وسيدي أحمد بن حمود وسيدي محمد الشريف النوفلي رفقا بالضعيف من الحجاج..."[5]

---

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 793.

[2] المرجع نفسه. ص 577.

[3] المرجع نفسه. ص 33.

[4] المرجع نفسه. ص 144.

[5] المرجع نفسه. ص 283.

كما نجد الرحالة شخصية فطنة، تتمتع بقدر كبير من الذكاء والحنكة، والبحث والاستقصاء، والخوض في مسائل عدّة، وما يدلّ على ذكائه شرحه لأحد الرموز التي بعث بها الشيخ أحمد بن يوسف إلى سلطان فاس، وفي هذا يقول: "وقد جعلت رسالة في شرحه وحاصل معناه... أن البرنس المجعول من الماء هو قوله صلى الله عليه وسلم... وأما العمامة من ثلج فهي ما تقلده من أنوار الشريعة وسواطع الحقيقة... وأمّا القناديل من الريح فهي معاني الصفات واستنشاق شذا معنى الذات... وأمّا الريح فهو الوارد على القلب الذي يوجب حبا للمحب... وأمّا الفتائل من ضباب فهي معاني الأسماء والأذكار... وأمّا الضباب فهي الحالة المستمدة منها المعاني...".[1]

وقد ظهر الرحالة أيضا في شخصية المعلم والمرشد، الذي يتكفل بتعليم رفقائه كيفية القيام بمناسك الحج، وذلك دون مقابل، وفي هذا يقول: "... ومعي جماعة كثيرة تكاد أن لا تحصى أطوف بهم علمتهم كيفية الطواف... فطفت بهم طوافا كاملا بشروطه وانتفاء موانعه مع الدعاء الوارد فيه أعلمهم إياه...".[2]

وفي الأخير نجد الرحالة شخصية تتمتع بقوة جسدية مكنته من القيام بدور الحارس والمدافع عن أفراد الركب الجزائري، يقف في وجه كل عدو يترصد الحجاج ويريد بهم سوءا من قطاع الطرق واللصوص وغيرهم، ورغم عدم وجود الصفات الجسمانية التي تدلّ على قوة الرحالة الجسدية، إلاّ أننا نفهم ونستشف هذا من سياق الكلام، ومن الأمثلة الواردة في النص الرحلي قوله: "... فلما وصل إلينا عزمت على قتله لأن لم يأت تائبا..."[3]، "... والحالة أنهم أخذوا بغلين وأربعة من الإبل فردّوا البغلين وجملين ثم أني ذهبت إليهم وحدي والناس يبرحون بالويل خافوا علي وأنا لم أسمع...".[4]

---

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 139- 140.

[2] المرجع نفسه. ص 454.

[3] المرجع نفسه. ص 155.

[4] المرجع نفسه. ص 284.

1-2- شخصية الآخر:

يعتبر الآخر جزءا أساسيا في بناء الرحلة، باعتبار الرحلة تفترض الانتقال من مكان إلى آخر، وبالتالي تفرض الالتقاء بالأجنبي والاحتكاك بالثقافة المغايرة، والاطلاع على آراء وسلوكات وعادات وتقاليد الغير، وفي ثنايا كل ذلك يصبح اكتشاف الآخر هو نفسه اكتشافا للذات، إذ تتحدّد المواقف النفسية والشعورية، التي تتولد نتيجة هذا التقاطع مع الثقافات الأخرى، كالعدوانية والحميمية التي تفرضها علاقات الانسجام والاصطدام مع الآخر.

ولقد عدّ الرحالة من أكبر الأدوات الثقافية التي تحاول رسم الهويات الثقافية للآخر، بفضل تحركه الدائم، وانتقاله المستمر بين الأمكنة، فتتشكل صورة الآخر عبر الأحكام التي يطلقها الرحالة نفسه، " فيحضر الآخر في الرحلة متعددا ومتنوعا بتنوع النماذج البشرية في المجتمعات والعصور".[1]

وأول ما يمكن ملاحظته في رحلة الورثيلاني هو ذلك الكمّ الهائل من الشخصيات (الآخر)، والتي يمكن التعرف عليها تدريجيا أثناء السرد، وفي إطار تأليفية الصفات، وفي إطار فئة من المعايير أبرزها معيار المكان (القرى، المدن، الصحاري، والقفار)، وتظهر هذه الشخصيات فرادى، كما تظهر في جماعات، وبعضها ملازمة للرحالة دائمة الحضور (المرافق للرحالة)، وبعضها الآخر تظهر، تحاور وتقوم بأفعال ما ثم تختفي (قطاع الطرق، والشيال)، كما أنها شخصيات ذات مرجعية تاريخية، لوجودها الفعلي والحقيقي في عالم الرحالة، وهي عبارة عن شخصيات ثانوية، انقسمت ما بين مساعدة ومعارضة.

وعن طريق الوصف والسرد والحوار الذي عمل على زيادة توضيح صورة الشخصية، حرص الورثيلاني على تعيين أسمائها، ووظائفها وتقديم أبرز خصائصها النفسية والفكرية والجسدية، ويمكن حصرها في: المرافق للرحالة، والحاكم أو ولي الأمر، ورجل العلم والسياسة ورجال من العامة.

[1] شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي. ص 329.

1-2-1- المرافق للرحالة:

يعرف المرافق على أنه الشخص الذي يسافر مع الرحالة، ويكون ملازما له طيلة سفره من أول الرحلة إلى آخر محطة فيها، "ويختلف المرافق عن الرحالة في أنه لا يقوم بدور التأليف، ونقل المشاهدات والانطباعات الشخصية، وإنما هومن الشخصيات المنتمية إلى قصة الرحلة".[1]

وعدد الشخصيات المرافقة للورثيلاني كثيرة جدا، وهي على نوعين: نوع حضر مرّة أو مرتين في الرحلة، فلم يكن له أهمية داخل سرد الأحداث، لأن الكاتب لم يتحدث عن أدوار هذا النوع من المرافقين، ونوع آخر تردد حضوره في الرحلة كثيرا، وقام بأدوار هامة خلال مرافقته للرحالة، نذكر منهم: أحمد بن حمود من فضلاء بني ورثيلان، وأحمد بن محمد السعدي من فضلاء بني منجلات، ومحمد الشريف النوفلي البلغيثي من طرابلس، وهذه الشخصيات مقربة جدا من الرحالة، اشتركت معه في كثير من الأعمال، كالدفاع عن أفراد الركب، ومساعدة الضعفاء منهم، ومثال ذلك في النص:

"... وأنا لا أملك نفسي عند ظهور الظلم وساعدني الأخ في الله سيدي أحمد الطيب وسيدي أحمد بن حمود وغيرهما...". [2]

"... من عادتي مع سيدي أحمد الطيب وسيدي الشريف وأصحابه ممن يركب على البغال أو الخيل إذا انفصل الركب، نذهب جميعنا لتحصل لنا الصلاة في الجماعة وليستعين بعضنا ببعض حتى الغذاء نجتمع عليه..." [3]

وقد ذكر الوثيلاني في مرحلة الإياب أسماء الكثير من المرافقين[4]، وتحدث عن بعض صفاتهم وخصالهم كالنبل، والفضيلة، والشجاعة، والعلم، والزهد، والورع، والكرم، وحب

[1] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري. ص 192، 193.

[2] الحسين الورثيلاني: نزهة الأنظار. ص 336.

[3] المرجع نفسه. ص 627.

[4] المرجع نفسه. ص 692.

الآخرين ومساعدة المستضعفين، والتصدي للأعداء من قطاع الطرق واللصوص، وقد أشار الورثيلاني إلى ضرورة وأهمية اختيار الرفيق في السفر فقال:" وليعلم الإنسان أن الزاد وإن كان ركنا في الحج وشرطا فيه، فالركن القوي الرفقة المأمونة من وطنك وغيرهم ومن وجد مالا ولم يجد رفقة من وطنه فلا يغر نفسه فإن الرفقة خصوصا الإخوان في الله فإنهم النافعون".[1]

1-2-2-الحاكم وولي الأمر:

خصّص الورثيلاني في رحلته مساحة للتحدث عن بعض الحكام والولاة، الذين اتصل بهم وتعامل معهم، وقد تباينت أساليب عرض هذه الشخصيات، بين الرضا والشكر والثناء على البعض، والسخط والغضب من البعض الآخر.

ومن بين الشخصيات التي تحدث عنها الورثيلاني والي البولاق، التي تعتبر شخصية معارضة، نظرا لكثرة ظلم هذا الوالي للحجّاج، فقد كان معينوه وحرّاسه يمسكونهم ويزجون بهم في السّجون، ولا يفرجون عنهم إلاّ بعد الحصول على الأموال، وهذا ما يؤكده في قوله: "... فما خرج منهم إلى السوق واحد إلاّ حبسوه وسجنوه حتى أنهم حبسوا أفاضل الركب من العلماء والصلحاء والطلبة والفقراء..."[2]، ورغم أنّ والي البولاق لم يردّ شفاعة الورثيلاني في تسريح المكروبين ممن كانوا في السجن، غير أن هذا لم يمنع الورثيلاني من الدعاء عليه بالهلاك"[3]، وقد أورد بعضا من صفاته الجسمانية في قوله: "وحاكم بولاق هذا رجل كبير السن حسن الصورة عريض الوجه مشرب بحمرة طويل اللحية كثيف الحاجبين..." [4]. وتحدث كذلك عن ظلم ولاة مصر لجميع الناس بمختلف فئاتهم، فقال: "إنّ ظلم ولاتها قد وصل كل

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 698.

[2] المرجع نفسه. ص 641.

[3] المرجع نفسه. ص ن.

[4] المرجع نفسه. ص 642.

جنس من أجناس الآدميين حتى بلغ ظلم الحاج المغربي والعلماء والطلبة والفقراء والأشياخ والصناع والتجار والمجاورين وسائر الناس قاطبة...".[1]

ومن الشخصيات الحاكمة التي حظيت باهتمام الكاتب، علي باشا والي طرابلس، وهو رجل كريم ومتواضع، يجيد الإصغاء ويتقبل النصح والإرشاد، محبا للعلم والعلماء، ومن صفاته التي لا تعدّ ولا تحصى، والتي نقلها الورثيلاني بكثير من الحرارة والصدق والتأثر قوله: "السلطان الأفخم، والأمير الأعظم، محب الصالحين، والعلماء العاملين، صغير السن كبير الشأن كثير المن... رجل أورع الناس، وأثبتهم للباس، صادق في المعاملات، خال من الشبهات، محافظ للأوقات، راع للميقات، في جميع أحواله وسكونه وانتقاله، وكفّه واشتغاله..."[2]، يستبد الوصف الذاتي في هذا المقطع، وهو وصف اعتمد فيه السجع والطباق، ويعدّ من الوقفات الكثيرة التي تأتي في هذه الرحلة، وذلك لإشراك القراء في التعرف على الشخصية . وقد ركّز الكاتب في موضع آخر على الصفات الجسمانية لهذا السلطان فقال: "فهو صغير الرأس لين الجانب لا يتعاظم مع جليسه مبسوط الوجه غير منقبض مرتب الكلام ولا يطيش بعقله ليس بلعان ولا سباب، رحيم بالمؤمنين مقبل العثرات، ومقبل الشفاعات...".[3]

أمّا شخصية "مساعد" سلطان مكة المشرفة، فهي شخصية مساعدة قدمت العون للرحالة، وقد تحدث الورثيلاني عن تواضع هذا السلطان، وحسن نيته، ورغبته في إصلاح الأمور، إذ قصده الورثيلاني شاكيا من بعض الأعراب، الذين أغاروا على الحجاج من أفراد الركب الجزائري، وأخذوا منهم جمالهم، فستجاب السلطان لشكوته ووعده بإعادة الجمال، وقد وصفه الورثيلاني في قوله: "فلما دخلت عليه وجدته جالسا على فرش مرتفعة مواجها باب

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 375.

[2] المرجع نفسه. ص 724.

[3] المرجع نفسه. ص 730.

طاق ينظر الأركاب ويعتبر ومعه أشخاص قليلة فلما قربت منه تحرك عن موضعه فقبل كتفي وقبلت كتفه... وقد فرح بي وسر سرورا عظيما لما علم أني صاحب علم وانبسط وجهه انبساطا كاملا..."."[1]

1-2-3- رجل العلم والسياسة:

اتصل الورثيلاني بشخصيات كثيرة، ذات صلة بالعلم والسياسة، ولكن فئة العلماء كانت طاغية أكثر على رحلته المدوّنة، وكان وصفه حافلا بأساليب البيان والبديع، وقد تكررت في وصفه عبارات (العالم الكامل)، (ذو العلم المتين)، (ذو العلوم الربانية)، (شمس الحق والعرفان)، (البدر الواضح)، (المحقق الهمام)، وغيرها من العبارات.

ومن بين العلماء الذين التقى بهم في تونس، عبد القادر الفاسي الذي لقيه بمسجد توزر يدرس الحديث، "وكان رضي الله تعالى عنه حافظا للروايات ناقلا مذاهب العلماء عباراته سلسة فصيح اللسان حلو الكلام"[2]، كذلك لقي الفقيه ابن محجوبة، والأديب حمودة بن عبد العزيز، ومفتي الحنفية حسن الترجمان، والفقيه أحمد بن عبد الصادق وصالح الكواشي، "المحقق والعلامة المدقق ذو الأبحاث الشريفة والنكت المنيفة والفوائد الظريفة والأدبيات المستظرفة"[3]، واللغوي الفاضل أحمد السويسي والفقيه أحمد التجاني وغيرهم كثير[4]، أمّا ليبيا، فقد عرف فيها عددا من الأعلام بعضهم من رجال العلم والبعض الآخر من أهل السياسة ومنهم المفتي محمد بن المقيل، " المحقق الفاضل، والأخ الكامل، سخي النفس، صادق عند الضر والبأس، الموفي بالعهود، ونظيره في الناس غير موجود، الأديب على الاطلاق المحب بالاتفاق مفتي الأنام، المبدئ بالإحسان والسلام"[5]، والشيخ محمد العربي الفرجاني

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 492.
[2] المرجع نفسه. ص 158، 159.
[3] المرجع نفسه. ص 762.
[4] المرجع نفسه. ص ن.
[5] المرجع نفسه. ص 726.

"الفاضل الكامل والعبقري الهمام الكامل، نبراس وطنه، وفريد عصره وحيد في وقته، ورع في حاله، زاهد في ماله"[1]، والعلامة محمد بن عامر، والفقيه سالم الفيطيسي، والشيخ محمد السوداني ويوسف الكاخية وزير السلطان علي باشا، وقائد زنزور "الذي بنى مدرسة عظيمة مربعة وفيها بيوت كثيرة ومسجد جيد وعرصة طيبة يستحسن ذلك جميع الناظرين فلا يكاد من يريد القراءة والتحنث بالعبادة أن يخرج منها وفيها طلبة القرآن والعلم".[2]

وقد اجتمع الورثيلاني بالعديد من العلماء والشيوخ والولاة في مصر، ومنهم "إمام الطريقة والسالكين، الجامع بين الحقيقة والشريعة سيدي محمد الحفنأوي"[3]، والشيخ الجوهري، والشيخ علي الصعيدي الذي أجازه في جميع العلوم، والشيخ علي الفيومي "الفاضل العارف بالله ذو الأحوال المرضية والمحبة الصافية والحقيقة النبوية والواردات الإلهية"[4]، والشيخ عمر الطحلأوي، والشيخ الزياتي الشافعي، والشيخ النفرأوي "العالم الكامل، إمام الجامع، ذو الصدر الواسع، الحافظ على الإطلاق، والناقل بالاتفاق"[5]، وكذلك يذكر الورثيلاني لقائه مع الشيخ عبد الرؤوف، نقيب كسوة الكعبة المشرفة، الذي استضافه وبالغ في إكرامه واحترامه[6]، وذكر أيضا اثنين من الأتراك الأول نائب حاكم البولاق، وهو رجل صالح ساعد الورثيلاني في تسريح عدد من أفراد الركب الجزائري الذين سجنوا في قضية البدويين، والثاني يعمل أيضا لدى حاكم البولاق، وقد لقي منه الرحالة إساءة كبيرة، إذ أراد سجنه في قضية أخرى ارتشاه بدوي آخر فيها.[7]

---

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 727.

[2] المرجع نفسه. ص 736.

[3] المرجع نفسه. ص 338.

[4] المرجع نفسه. ص 343.

[5] المرجع نفسه. ص 351.

[6] المرجع نفسه. ص 312.

[7] المرجع نفسه. ص 643، 644.

ويبدو أن الورثيلاني لم يلتقي بشخصيات كثيرة في الحجاز، وذلك لشدّة انشغاله بآداء فريضة الحج والعمرة، ومن الشخصيات السياسية والعلمية التي اجتمع بها، الشيخ محمد أكرم، "وهو رجل عالم له تآليف على رجال البخاري واختصر البخاري في مجلد حذف الأسانيد والمكرر وهو ضرير كبير السن به مرض ملازم بيته "[1]، كذلك التقى بخطيب عرفة الذي قبّل ركبته وسمع خطبته، ووصفه في قوله: "رجل شريف كبير السن وكلامه عليه حلاوة وطلاوة يعلوه نور وهو أجمل خلق الله قدا وخدا بياضه مشرب بحمرة وسيع الوجه يتلألأ نورا قد شاب فلم تبقى فيه شعرة سوداء والله أعلم"[2]، واجتمع أيضا في المدينة المنورة بخطيب الحرم الشيخ إسماعيل الذي أجازه بخط يده".[3]

والتقى كذلك بخليفة أمير مكة، الذي أكرمه وأحسن إليه، تلبية لتوصية الشيخ محمد الحفناوي، وهي عبارة عن ورقة مزبورة بعث بها مع الرحالة، ليكون مع الحجاج الجزائريين، وقد وصف الورثيلاني لقاءه ومحلّ إقامته قائلا: "لما وصلنا إليه قام إلينا وعظمنا غاية التعظيم ومع ذلك هوفي رفعة عظيمة ومرتبة منيفة ومعه عسكر عظيم لا يصل إليه الضعيف إلا بعد شدة كبيرة وانتضار... وذلك المحل الذي هو فيه يخطف الأبصار لاختلاف الألوان وكثرة الأواني المزخرفة "[4]

وتطول قائمة العلماء ورجال السياسة الذين التقى بهم الورثيلاني في رحلته، أو ناقشهم في مسائل فقهية أو تفسيرية أو منطقية.

[1] المرجع السابق. ص 458، 459.

[2] المرجع نفسه. ص 482، 483.

[3] المرجع نفسه. ص 584.

[4] المرجع نفسه. ص 432.

1-2-4- رجال من العامة:

تضمّنت رحلة الورثيلاني شخصيات من عامة الناس كالمطوف والشيال وقاطع الطريق، وهي عبارة عن شخصيات ثانوية ساهمت في تصعيد الأحداث، البعض منها شخصيات مساعدة والبعض الآخر شخصيات معارضة.

ومن الشخصيات التي تحدث عنها الرحالة شخصية المطوف "الذي يعين الحجاج على أداء مناسك الحج، وتوفير كل ما يحتاجه خلال ذلك، ويلقن الأدعية، ويتولى متابعة طواف الحجاج، ومعرفة الأشواط المنجزة"[1]، ورغم أنّ هذه الشخصية ساعدت الحجاج على أداء مناسك الحج، إلاّ أن الورثيلاني لم يكن يطمئن لها، فكان يتولى هو هذه المهمّة وفي ذلك يقول: "طفت بهم طوافا كاملا بشروطه وانتفاء موانعه مع الدعاء الوارد فيه أعملهم إياه ولما رأى أهل مكة فعلي ذلك تغيروا وقالوا ألم تعلم أن أهل مكة لا ينتظرون إلاّ هذا الموسم فقالوا طف لنفسك وأترك الناس فقلت أنا أطوف بهم وأعلمهم وأنتم خذوا الأجرة منهم".[2]

كذلك تحدث عن طائفة الشيالين الذين يقومون بحمل متاع الحجاج، ونقله بالإبل والدواب، مقابل مبلغ من المال يسلم إليهم مسبقا، وهذا ما جعل البعض منهم، يفرّ تاركا متاع الحجاج في الطريق، وهذا بعد أن يقبض أجره، وقد قال الرحالة في ذلك: " أن أكثر الشيالين هربوا على الحجاج فمنهم من فرّ بإبله ومنهم من تركها لغلاء العلف وقلة دراهم الكراء فهرب شيال سيدي أحمد الطيب بإبله فكان ما كان من قدر الله تعالى من احتياجنا إلى الكراء... ثم إن سيدي محمد المسعود هرب شياله أيضا بإبله فبقي كذلك مطروحا في الأرض"[3]، وقد اجتمعت في هذه الشخصيات صفات النفاق والغدر والمكر والخديعة، ولهذا كان الورثيلاني ينصح الحجاج بأخذ الحيطة والحذر وعدم الإئتمان لهم، وفي ذلك يقول: "فلا

[1] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري. ص 269.

[2] الحسين الورثيلاني: تحفة الأنظار. ص 454.

[3] المرجع نفسه. ص 629.

تغتر أيها الحاج بحلاوة اللسان من الشياطين ولا بإظهار المودة ولا بكثرة الإيمان فإنهم ذئاب في ثياب وكذا أن أتوا لك بهدية لا تقبلها منهم فإنهم يريدون التحيل بالوصول بها إلى مالك فتقع في شبكة لا مخرج لك منها فلا يعتبرون عهدا ولا مودة ولا يمينا ولا صحبة ولا شيخا ولا وليا إلاّ المكر والخديعة ".[1]

وتناول أيضا في رحلته قطاع الطرق الذين انتشروا في مناطق عدّة، ففي قابس أغار الأعراب على الحجّاج، ونهبوا جمالهم وفي ذلك يقول: " وتوزر وقابس محل الخطفة بل توزر أعظم فكل من غفل عن حاجة في يده إلا وخطفوها فإياك والغفلة فيهما بل وفي غيرهما فإن الغفلة فيها مظنة التلف".[2]

وتحدث أيضا في موضع آخر عن هجوم تعرض له من أحد العصابات بمنطقة نفزاوة، حيث بدأت هذه العصابة تتحرش على الحجاج، وتستولي على بعض أمتعتهم إلى أن تطور الأمر إلى اشتباك بالرصاص فقال: "وقد داروا بنا كالحلقة وكثر الرصاص بأن ينزل علينا كالمطر ومع ذلك والحمد لله من وقعت فيه رصاصة نزلت كالطين بحيث لم تضر أحدا إلاّ الكاتب الذي لم يمر على الخط أتت بندقة ووقعت فيه تحت السرة بأن دخلت في الجلد مقدار أنملتين فرجعت بإذن الله غير أنه مكث أياما فتضرر من ذلك ثم عفي والحمد لله أما هم فقد مات منهم والله أعلم اثنان..."[3].

وهي عبارة عن شخصيات متسلطة وخطيرة جدا، مليئة بالغدر وقساوة القلب، ولا يهتم المؤلف بمظهرها الخارجي بقدر ما يركز على أفعالها.

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 337.
[2] المرجع نفسه. ص 162 – 163.
[3] المرجع نفسه. ص 154.

2- بنية الزمن:

شغل الزمن ومنذ القديم الفلاسفة والعلماء والأدباء بالخصوص، وقد تضاربت الآراء بشأن تحديد مفهومه والكشف عن هويته، فأصبح لغزا محيّرا لدى البعض، وهذا جعل القديس أوغستين يتساءل قائلا: "ما هو الوقت إذن؟ إن لم يسألني أحد عنه أعرفه، أمّا أن أشرحه فلا أستطيع"[1]، فالزمن ظاهرة مجردة، فهو "كالأكسجين يعايشنا في كل لحظة من حياتنا، وفي كل مكان من حركاتنا، غير أننا لا نحس به، ولا نستطيع أن نتلمسه ولا أن نراه".[2]

وقد اهتم الباحثين في مجال الرواية بعنصر الزمن، باعتباره مكونا أساسيا للنص الأدبي عامة والنص الروائي خاصة، ويعدّ الشكلانيين الروس من الأوائل الذين وضعوا أسس دراسة الزمن وتحليله، غير أنّ هذه الدراسة قبلت بالرفض، ولم تحظى بالاهتمام إلاّ مع ظهور النقد البنائي في الستينات، حيث برز الزمن كعنصر من العناصر البنيوية في الرواية، فظهرت محاولات جديدة لتحليل الزمن في الرواية، أهمها دراسة "جيرار جينيت"[3]، الذي قام بإرساء قراءة جديدة للزمن السردي عند تحليله للخطاب الروائي.

وما يهمنا من كل هذا هو دراسة بنية الزمن في رحلة الورثيلاني، والتي لا تختلف عن النصوص الحكائية في تعدد مستويات الزمن فيها، ما بين زمن الرحلة الفعلية وزمن التأليف.

2-1- زمن الرحلة:

يتألف زمن الرحلة من البداية أو الانطلاق، الذي يحفل بكثير من التفاصيل المتعلقة بتحضيرات السفر، والوسط أو المسير الذي يتضمن معظم أحداث الرحلة، وأخيرا النهاية أو الوصول الذي يحمل مشاهد العودة والرجوع.

---

[1] محمد صابر عبيد، سوسن البياتي: جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار، (د ط)، سوريا. ص 205.

[2] عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون، (د ط)، الكويت، 1978. ص 201.

[3] سيزا قاسم: بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، القاهرة، 1984. ص 39، 40. (بتصرف).

4 الحسين الورثيلاني : نزهة الأنظار . ص 13.

2-1-1 زمن الانطلاق:

بعد افتتاحية طويلة، طغت عليها الروح الدينية للورثيلاني، يحدّد الرحالة زمن الانطلاق من خلال ثلاث مقاطع : الأول يضبط فيه السنة التي قام فيها بهذا السفر، وذلك من خلال قوله: " أعلم أيها الأخ لما أراد الله المشي منا إلى الحج وقد سبق في علم الله أن يكون حجنا في عام تسعة وسبعين ومئة وألف(1179)[1] ' ثم يذهب في الحديث عن ظروف وأسباب هذا السفر والاستعدادات والتجهيزات التي تسبق الخروج، كزيارة الأولياء الصالحين والتبرك بهم، والعلماء وقضاء بعض حوائج المسلمين .

المقطع الثاني، ويتمثل في ذكر لحظة الخروج مرة أخرى في قوله: "فلما حان السفر وآن حاله ذكرنا بعض ما ورد ذكره وصلينا الصلاة الواردة وختمنا بالصلاة في المسجد"5، ويتبين لنا من خلال هذا المقطع أنّ الرحالة بعد ذكره لحظة السفر، استغرق في الحديث عن قيامه بالصلاة ثم توديع الأهل والأقارب، وذكر محاولاتهم المتعددة لمنعه من السفر.

أّما المقطع الثالث، فيجزم فيه خروجه عن طريق تحديد اليوم والوقت الذي تمّ فيه هذا السفر، فيقول: "نعم خرجنا يوم الخميس لما فيه من التيمن والبركة... ثم بقينا كذلك على التوديع إلى أن غربت الشمس بل إلى صلاة العشاء والناس تقدم إلينا لتذكرنا الانفصال والافتراق والانتقال"[2].

ومن خلال هذه النصوص، نستنتج بأنّ الرحالة قد أغفل ذكر الشهر الهجري أو الميلادي الذي وقع فيه السفر، مكتفيا بذكر السنة واليوم والوقت، ويبدو أن بنية زمن الانطلاق اتخذت شكل الماضي المتشبع بالحاضر، هذا الحاضر الذي يحاول استدعاء

[1] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق. ص 104.

[2] المرجع نفسه. ص 107.

الماضي عن طريق عملية التذكر، فالمؤلف أعاد تشكيل وصياغة الماضي في حاضره ومستقبله".[1]

2-1-2- زمن المسير:

يعتبر هذا القسم بؤرة الرحلة، فهو أكثر الأقسام استغراقا للزمن، كما أنه يتضمن معظم أحداث الرحلة بما فيها من مشاهدات وأخبار، ومشاعر اختلطت ما بين حزن وخوف وفرح ودهشة، ويضمّ هذا القسم مرحلة الذهاب إلى الحجاز والمكوث فيه، ومرحلة الإياب.

وقد عمد الورثيلاني إلى تزمين رحلته المشرقية، التي انطلقت من مناطق عدّة في الوطن باتجاه تونس مرورا بطرابلس ومصر، وصولا إلى الحجاز ثم العودة، وذلك من خلال تحديد اليوم والشهر و السنة وعدد أيام المسير ومدة الإقامة، ومن أمثلة ذلك تلك النصوص المتكررة بكثرة في الرحلة نذكر منها:

" ظعنا ضحى الثلاثاء خامس وعشرين من رجب وعشرين من شتنبر ونزلنا سيدي عقبه عصرا...".[2]

" ثم ظعنا منه أواخر شعبان عام التاريخ وهو عام تسعة وسبعين ومائة وألف (1179هـ)".[3]

" نزلنا قرب برج الملح... فأصبحنا والحمد لله في الزوارة الخالية فسقينا الماء وأوردنا الخيل والبغال والإبل..."[4].

" ثم ظعنا منها إلى مدينة بسكرة ذاهبين فبتنا في الطريق ليلة واحدة...". [5]

---

[1] شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي. ص 199، 200.

[2] الحسين الورثيلاني: نزهة الأنظار. ص 124.

[3] المرجع نفسه. ص 256.

[4] المرجع نفسه، ص 165.

[5] المرجع نفسه، ص 115.

" ثم مشينا من زمورة صبيحة الأحد...".[1]

" ثم ارتحلنا منها فنزلنا توزر وقت الضحى...".[2]

"وعند اليوم الرابع ظهر لنا... غير أننا اليوم الخامس صبيحته وقع التنادي في الركب... وفي اليوم السادس مررنا على القرية المعلومة..."[3]

والمتأمل لهذه المقاطع السردية يلاحظ أنها وردت في الزمن الماضي، مسبوقة بجمل فعلية منسوبة إلى المتكلم الجمعي مثل: ظعنا، مشينا، نزلنا، بتنا، وصلنا...، كما يلاحظ اختلافا وتباينا في بعض التفاصيل المتعلقة بالزمن، فنجد المؤلف تارة يذكر اليوم والشهر، وتارة يذكر الشهر والسنة، وتارة أخرى يحدّد مدة الإقامة أو عدد الأيام، وفي موضع آخر لا يهتم بالزمن بقدر ما يهتم بوصف الأحداث والظواهر، ومثال ذلك قوله: " ضعنا من الشمامه إلى وادي الرهبان وهو واد عظيم طويل وفيه قصور للعباد من النصارى ينعزلون هناك لعبادة الأصنام..."[4]

وتجدر الإشارة إلى أنّ رحلة الورثيلاني قد تضمّنت الزمن الرئيسي الخاص برحلته الثالثة نح والحجاز سنة (1179هـ)، إضافة إلى زمن الرحلتين السابقتين الأولى والثانية، وهذا ما نجده في قوله:

" وفي تلك الحجة وهي عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف (1153) ذهب معنا العلامة الفاضل..."[5] ، "وكنت دخلت الخنقة في الحجة الأولى مع أمير الحجاج سيدي أحمد بن

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق، ص 110.

[2] المرجع نفسه، ص 156.

[3] المرجع نفسه، ص 276.

[4] المرجع نفسه، ص 292.

[5] المرجع نفسه، ص 153.

الطيب..."[1] ، "غير أنهم في الحجة الثانية ضيفونا ضيافة عظيمة وذهبوا معنا من طرابلس إلى انصرام رمضان ونحن أردنا العجلة..." [2]

وربّما يكون غرض المؤلف من الرجوع إلى زمن الرحلتين، هو إظهار التشابه والاختلاف في الحدث، ورغم هذه الاسترجاعات الماضية، نجده حريصا على الرجوع إلى الزمن الأصلي الذي هوزمن الرحلة الثالثة.

ويتحدث الورثيلاني عن قربه من مكان الإحرام قائلا: " نعم تقوى علينا شذاء القرب من الربّ الكريم فتشفت الأحوال والنعوت، فربحت تجارة الحاج بمجاورة اللهوت، ثم كذلك إلى أن وصلنا قاع البزوة، وهي محل نزول الركب عند الزوال فوجدنا المصري إذا راحلا وقد أدركنا آخره فلم ينزل ركبنا هناك بل جاوزنا سائرين آخر المصري ذاهبين معه إلى وقت المغرب فنزلا وبتنا والحمد لله في عافية وسرور بقربنا مكان الإحرام والمصري سائر على حاله إلى قرب طلوع الفجر فارتحلنا منه آخر الليل"[3]، يتجلى في هذا المقطع السردي الأثر النفسي الذي أحدثه القرب من بيت الله الحرام، فبدى الفرح والسرور واضحا في نفس الرحالة، لقد عايش الرحالة هذا الإحساس وحاول نقله إلينا في حركة زمنية متسارعة.

ويقول في نسك الإحرام: "ودخلنا رابغ ووجدنا المصري قد خيم فيه ونزلنا فوقه قبل الزوال... إلى أن حان وقت الظهر فصلينا الظهر ثم أقمنا نستعد لأحوال الإحرام... حتى قرب وقت العصر فآن إحرام الكل فشمرنا عن ساعد الجد، ليتأهب جميعنا لما فيه الكمال بالكد، ورمينا ما كنا بصدده من مجاورة الضد...وأزلنا ثياب الحياة، ولبسنا ثياب الممات، وحنطناها كالكفن، وأيقظنا العيون والجفن، وقصدنا بالإحرام الانسلاخ من طبائع الأجباح التي هي كالسباخ..."[4]

---

[1] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق، ص 138.

[2] المرجع نفسه، ص 165.

[3] المرجع نفسه. ص 443.

[4] المرجع نفسه. ص 443، 444.

في هذا المثال السردي، قام المؤلف بتحديد زمن الرحلة من خلال حركتين زمنيتين الأولى سريعة متعلقة بدخول الوادي ثم الصلاة ثم الاستعداد للإحرام، والثانية متباطئة متعلقة بنسك الإحرام، حيث انتفى الزمن والوقت، ولم تدلّ عليه سوى بعض الأفعال المتتابعة نحو: شمرنا، أزلنا، لبسنا، أيقظنا...إلخ

أمّا مرحلة الإياب والتي تدخل ضمن هذا القسم الزمني من الرحلة، فتمت عبر المراحل المذكورة في الذهاب، مع تغير في مسارها قليلا، إذ توجه الركب بعد خروجه من طرابلس إلى الشمال التونسي نحو صفاقس، وتونس المدينة، وقد جاء زمن الإياب مختزلا إذا ما قرن بزمن الإياب المتسارع. ومن أمثلة الزمن في النص قوله: "فلما بتنا مع الأحباب في ابن غازي بكرنا صبيحة يومنا فوجدنا الركب قد ارتحل فأدركنا آخره وودعنا من يحبنا فيه إلى أن لحقناه فسرنا كذلك إلى أن وصلنا اجدابية وتجنبنا سلوكا وهو معطن عظيم ماؤه عذب وآباره متقنة لا تكاد توجد في غير هذا الموضع أما اجدابية فكانت عمارة وآثارها باقية إلى الآن وفيها آبار متفرقة كثيرة المياه... فظعنا منها إلى أن وصلنا معطن المنعل"[1]، نجد أيضا في هذا المقطع السردي حركتين زمنيتين، حركة سريعة تمثلت في سرد أحداث قضاء الليل في ابن غازي ومغادرتها في الصباح الباكر، ثم توديع الأحبة في الركب، وحركة زمنية متباطئة تعلوها الصفات وتقل فيها الأفعال.

2-1-3- زمن الوصول:

يعرض الورثيلاني نهاية رحلته، والوصول إلى وطنه بعد المرور بمداشر قريته، وملاقاة الأحبة وتوديعهم، وزيارة بعض الأولياء، فيقول: "وبالجملة فالجموع من وطننا رجالا ونساء هذا يتصل بنا وهذا ينفصل عنا إلى أن وصلنا إلى مقامنا ودارنا ليلة الجمعة وليلة العيد ويوم عرفه عام 1181 أحد وثمانين ومائة وألف فلما أصبح الله بخير الصباح اجتمعنا كالعادة لصلاة عيد الأضحى فرآنا من لم يرنا عند الوصول فتمت النعمة وعظمت المنة

[1] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق. ص 710.

علينا وعلى جميع الناس"[1]، وقد حدّد المؤلف في هذا المقطع السردي اليوم والوقت والسنة التي كان فيها الوصول.

2-2- زمن التأليف:

يظهر زمن التأليف في رحلة الورثيلاني في كل من الافتتاحية، والعرض، والخاتمة.

2-2-1- الافتتاحية:

تشكل الافتتاحية خطابا يتضمن عدّة عناصر، تعمل على تأطير النص وإضاءة بعض جوانبه، وتقريب طبيعة هذا الجنس من المتلقي، إضافة إلى رؤية المؤلف ووعيه بهذا اللون الأدبي الذي يتجلى في فعل الكتابة، ولا يخلو أي نص رحلي من افتتاحية أو مقدمة، فهي قطعة أساسية من النص السردي الرحلي.[2]

تتخذ افتتاحية رحلة الورثيلاني الشكل التقليدي المعروف في كتب القدماء، خاصة المؤلفات الإسلامية، حيث يبتدئها بالبسملة والحمدلة والتفكر في خلق الله ثم ذكر فضائله، وغيرها من العناصر التمهيدية التي تتألف منها الافتتاحية، وفيها يقول: "الحمد لله الذي خلق الإنسان أطوارا، وجعل الشمس والقمر والنجوم أنوارا... خلق الإنسان من نطفة أمشاج ليبتلى وجعل سميعا بصيرا، فبهدي إلى سبيل أما شاكرا وأما كفورا، ثم كالأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا... وقد حجوا حجا مبرورا... وجزاهم أيضا بما صبروا لتعب السفر ومشقته حرا وبردا وسقما... والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرمدا دائما بكرة وأصيلا ليلا ونهارا وعلى آله وأصحابه أجمعين... وبعد فأني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار والرباع... أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة، وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح به علي أو

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 812.

[2] شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي. ص 184.

منقولا من الكتب سيما أن اعتمادي في ذلك على رحلة... أحمد بن محمد بن ناصر... من بعض كتب التاريخ... مما يناسب المحل جعل الله خالصا لوجهه وعملا متقبلا... لمؤلفه وناسخه ومالكه وناظره أمين يا رب العالمين، وكذا قلت وعلى الله اعتمدت"[1]

يبتدئ الورثيلاني رحلته مثلما جرت عادة القدماء في التأليف، بتأطير ديني إسلامي، والمتمثل في البسملة والصلاة على النبي والحمد له، ثم التدبر في خلق الكون والإنسان، وذكر رحلة الحج وأتعابها وفضائلها، وينتقل بعد ذلك إلى تأطير ذاتي، حيث يتسلم الضمير المتكلم (الأنا) الخطاب، معرفا بدوافع الخروج والسفر، مفصحا عن ما تحتويه الرحلة من أخبار، ومعارف وأحكام شرعية، وأفكار في التصوف وعجائب وغرائب، وهذا كله من أجل محاولة إغراء وإقناع المتلقي بالنص، ثم يلجأ بعد ذلك إلى ذكر المصادر المعتمدة في الرحلة، وأخيرا يختتم المقدمة بدعاء محمود لنفسه، ولناسخ الرحلة ومالكها وناظرها، ليدخل بعد ذلك إلى صلب الموضوع. ويتمظهر زمن التأليف في عدّة أفعال منها: يستحسنها، يستعظمها، تزهو، الدالّة على حاضر الكتابة.

2-2-2-العرض:

يصعب على دارس النص الرحلي استخراج زمن التأليف نظرا لاختلاف الأزمنة، وتداخل زمن الرحلة الأصلي مع زمن الكتابة، ومن بين النماذج الدالة على زمن التأليف قوله: "... لما رأينا من وقوع الإهمال في ذلك في وطننا فرسمنا كل ذلك رسما جيدا فحفظت من كل خلق وصف أسلافه ونقله من كل فرع أخبار أصله علما مني أنه لا يمجه السمع السليم والطبع المستقيم ريحانة لما يجده المتأخر بعدنا ورحمة لما يحصل له من اقتباس الأنوار في وطننا..." [2]، في هذه الفقرة يؤكد المؤلف تقييده لأخبار وأوصاف بعض العلماء من أبناء وطنه، وهذا يخصّ زمن التأليف لا زمن الرحلة.

[1] الحسين الورثيلاني: نزهة الأنظار. ص 11 ، 13.

[2] المرجع نفسه. ص 345.

ويتوجه الورثيلاني بخطاب للقارئ في قوله: "... لا شك أن هذه الأخبار تكون موعظة للمعتبرين وتذكرة للموقنين، وتبصرة للمتفكرين، فمرتبة العلماء تزيد وتنقص بعلم التاريخ وهذا العلم يوجب للإنسان قوة المحاسن وضعفا في القبائح وبه تعلو الهمة باتصالها بالمعالي من الأمور وتدنو بسفاسفها وأكثر القرآن من هذا العلم فمن ذمه يخاف عليه الردة لأنه يسري إلى ذم القرآن... فلا تهمل أمرك منه وصحح علمك به..." [1]، يوضح الكاتب فضل علم التاريخ، وينصح القارئ بعدم إهماله (فلا)، واستعمل في ذلك شيئا من الحاضر في (تزيد، تنقص، تعلو، تدنو، يسري، يخاف).

وقوله أيضا: " نعم ذكرت في هذا التأليف نبذة يستحليها المفتقر الذي لي له علم أصلا ويتقوى بها المستبصر وأني أزيد فيه أخبارا عند وصولي إلى إفريقية إن شاء الله".[2] في هذا الموضع يقوم المؤلف باستباق زمن الرحلة للدلالة على زمن التأليف.

2-2-3-الخاتمة:

يختتم الورثيلاني رحلة المدونة، بإثبات لفظ (خاتمة)، الذي يدلّ على نهاية زمن التأليف فقال: "خاتمة ينبغي لنا أن نذكر شيئا من شروط قيام الساعة ليكون الناظر فيها على حذر وليستعد لها أيضا ما يصلح أن يكون زاد فقلت وعلى الله اعتمدت"[3]، يتوجه المؤلف بخطاب للقارئ يوضح فيه شروط الساعة وعلاماتها وضرورة الاستعداد لها.

3 - بنية المكان:

يعدّ المكان من أهم العناصر الأساسية المكونة للنص السردي، فهو الإطار العام الذي تتحرك فيه الشخصيات، وتنطلق منه الأحداث، وتتجسد فيه رؤية الكاتب، ولهذا فقد حظي باهتمام كبير من طرف الباحثين في مختلف المجالات كالفلسفة، والفيزياء،

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 690.

[2] المرجع نفسه. ص ن.

[3] المرجع نفسه. ص 813.

والرياضيات، والعلوم الإنسانية، الأمر الذي أدّى إلى تعدد المفاهيم والمصطلحات حسب التخصصات، وفي مجال الدراسات الروائية بالتحديد ظهرت مصطلحات عدّة كالمكان والحيّز والفضاء، ويعتبر هذا الأخير " أشمل وأوسع من معنى المكان، والمكان هو مكوّن الفضاء، وما دامت الأمكنة في الرواية غالبا ما تكون متعددة وترد متفاوتة، فإن فضاء الرواية يلفها جميعا، فهو العالم الواسع الذي يشمل مجموعة الأحداث الروائية، فالمقهى أو المنزل أو الساحة، كل منها يعتبر مكانا محددا، ولكن إذا كانت الرواية تشمل هذه الأماكن كلها فإن جميعها يشكل فضاء الرواية " .[1]

أمّا الحيّز، فيعتبره عبد المالك مرتاض أوسع من الفضاء لأنه يحوي الوزن، والثقل، والحجم, والشكل، وهو أشمل من المكان، لأنه قد يضم غير المحدود منه والخيالي كذلك[2]، ورغم تعدد المصطلحات، فإن مصطلح الفضاء يعدّ أكثر تداولا بين الدارسين، وأبرز شيوعا لأنه أوسع في المعنى وأعمق دلالة.

وقد سعى " غاستون باشلار"، إلى دراسة عنصر المكان في كتابه (شعرية الفضاء)، وحاول إعطاء مفهوم له باعتباره صورة فنية، فهو" المكان الأليف الذي ولدنا فيه ومارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكل فيه خيالنا، والمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة."[3]

وعندما نتحدث عن المكان يتبادر إلى ذهننا عنصر الزمان، الذي يعد أيضا مكونا أساسيا للنص الروائي، فكل عنصر يكمّل الآخر ولا يستغني عنه، على الرغم من أنّ المكان يدرك إدراكا حسيا مباشر بينما يدرك الزمان إدراكا غير مباشر من خلال فعله في الأشياء،

[1] حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي.ص63.

[2] عبد المالك مرتاض : نظرية الرواية.ص141.

[3] غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، بيروت،1987.ص6.

فهما عنصران متداخلان ومتلازمان[1]، ولهذا فإن الفصل بينهما يبدوا مستحيلا فالمكان يعد وعاءا للزمان، " والزمان هو مقياس للتغيرات التي تحدث في المكان، لذلك حاول بعض الباحثين مثل " باختين" إيجاد مصطلح فني يجمع بين الزمان والمكان هو مصطلح " الزمكان"، من هنا ليس هناك مكانا يمكن أن يفصل عن الزمان بأي شكل من الأشكال "[2] .

والواقع أن المكان لا يعيش في النص السردي بمعزل عن العناصر السردية الأخرى كالشخصيات والأحداث، وإنما يدخل في علاقات متعددة معها، فعلاقة المكان بالحدث علاقة تلازم، ولا يمكن أن نتصور أحداثا بمعزل عن الأمكنة التي تدور فيها، وعلاقة المكان بالشخصيات متنوعة ومختلفة، فالشخصيات تعيش في الأماكن، تتلاحم معها، وتندمج فيها، تحس بألفتها تارة، وتنفر منها وتعاديها تارة أخرى[3]، فتبقى العلاقة بينهما علاقة تفاعل مستمر، فلم يعد المكان إطارا هندسيا تتواجد فيه الشخصيات فحسب، بل أصبح مؤثرا فيها ومحركا لها.

ومن خلال هذه المفاهيم ننتقل إلى دراسة هذا المكان في رحلة الورثيلاني، باعتبار أن الرحلة تتوفر على حتمية الانتقال من مكان إلى آخر، حيث ينقسم المكان في الرحلة إلى قسمين: مكان الرحلة الذي عاش فيه الرحالة والمكان التاريخي لا علاقة له بحياة الرحالة وإنما استعاده انطلاقا من ذاكرته الشخصية والذاكرة الجمعية(التاريخية).

3 -1 – مكان الرحلة :

وينقسم بدوره إلى ثلاثة أمكنة إطارية كبرى وهي مكان المنطلق ومكان المعبر ومكان المقصد .

---

[1] أوريدة عبود: المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية دراسة بنيوية للنفوس ثائرة، دار الأمل،(د ط)،(د م) . ص30 .(بتصرف).

[2] محمد صابر عبيد، سوسن البياتي :جماليات التشكيل الروائي, ص231.

[3] ضياء غاني لفتة، عواد كاظم لفتة: سرديات النص الأدبي، مكتبة حامد، ط1، عمان، 2011م .ص28.

3 – 1 –1 – مكان المنطلق:

هو الأساس الذي يكوّن نقطة البداية والعودة، وهو المكان الأم كالوطن أو محل السكن، وتربط الرحالة بالمكان علاقات متنوعة، تتجسد من خلال مقارناته وتشبيهاته أو إفصاحه عن شوقه وحنينه للوطن، ولهذا غالبا ما يكون المكان المنطلق حاضرا في الرحلة حتى بعد مغادرة الرحالة له، ومن هنا يصبح المكان المنطلق مرجعا وسجلا يلجأ إليه الرحالة أثناء المقارنة والتقويم والحكم .

ونجد في رحلة الورثيلاني الكثير من أماكن المنطلق والمرجع، والتي أظهر فيها صعوبة ترك الوطن والأهل والأحبة، وهذا ما توحي به لحظات التوديع المستمر وتعداد المنازل والقرى والعشائر، وذكر كل حبيب استضافه وودّعه، وهذا كله يدّل على صعوبة الموقف لولا الرغبة في زيارة البقاع المقدسة, وتلبية نداء الرحمان عزّ وجل، ومن أمثلة ذلك في النص:

" فحصل مبيتنا في بني حافظ فودعنا كل حبيب وعدو ورافض ...." [1]

" ثم أخذنا في الطلوع لدار... سيدي بركات فدخلت بيته وزرت زوجته ...فلم تمتلك نفسها عند المفارقة، وهي بقدرة الله مشتاقة فدعت لنا من صميم القلب، وخلوص اللب، وكذا أولادها ثم ودعناها..." [2]

" ... فمشينا تلك العقبة، فوصلنا قبر كامل من النقبة ... فصلينا الظهر عنده، طالبين رضاه ووده، وصلت تلك الجموع فرجع المودع وذهب المودوع..."[3]

نلمس في هذا المقطع الأخير مشهدين متنافيين داخل فضاء مكاني واحد، مشهد رجوع المودعين إلى ديارهم، ومشهد توجه الرحالة والركب إلى الأمام، واستكمال المسير.

[1] الحسين الورثيلاني : نزهة الأنظار. ص107.

[2] المرجع نفسه .ص108.

[3] المرجع نفسه. ص ن.

وإذا كانت أماكن المنطلق مقترنة بمشاهد الحزن والكآبة, فإنّ أماكن المرجع والعودة كانت حافلة بمشاهد الفرح والسرور، وحسن الكرم والضيافة، وأمثلة ذلك في النص:

" ثم سرنا كذلك أياما إلى أن وصلنا زمورة فلما سمعوا بنا لقيان من بها من العامة والخاصة فرحين مسرورين ببنادقهم وغير ذلك من أنواع الفرح فكل يعزم علينا ويرغب في المبيت عنده..."[1]

" ... وسلكنا طريق أبي خميس فوجدنا أكثر الأحباب منتظرين من وطننا ووطن بني يعلى إذ فرحوا بقدومنا وسروا برجوعنا العامة والخاصة...."[2]

"... وبالجملة فالجموع من وطننا رجالا ونساءا هذا يتصل بنا وهذا ينفصل عنا إلى أن وصلنا إلى مقامنا ودارنا..." [3].

أمّا فيما يخص المقارنات التي أوردها الكاتب في رحلته، والتي نتجت عن تذكر الوطن في بعض مراحل السفر، كمرحلة تونس التي قارن مبانيها بمباني بسكرة وهذا في قوله: "...فنزلنا توزر وقت الضحى وهي بلدة عظيمة من قواعد الجريد كثيرة النخل مع جودة تمرها إذ لا نظير له في سائر بلاد الجريد قوية المياه فيها أنهار وماؤها عذب وبناؤها شامخ مستحسن مرونق فهي أفضل من بسكرة لأن بناءها بالطوب وهي بناؤها بالآجر والجير والجبس في غاية الاتقان مع طول البنيان إلى العلو وسعة عرضه حاصله إنها قرية طيبة جيدة وذلك عام في الدور والمساجد بخلاف بسكرة فإن حسنها في مساجدها فقط"[4]. يكاد يخلو هذا المقطع من أيّة حركة والتي تجسدها الأفعال، باستثناء الفعل الماضي (نزلنا) الموجود في البداية، حيث يحتل الوصف فيه كل المساحة وهو وصف ذاتي انطباعي.

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق.ص806.

[2] المرجع نفسه. ص809.

[3] المرجع نفسه. ص812.

[4] المرجع نفسه. ص156.

وكذلك تتبدى في مرحلة طرابلس صورة الوطن في ذهن الرحالة، وذلك باستشعار الشبه بين رمّان قرية تاجوراء، ورمّان إحدى القرى في الجزائر، ومثال هذا قوله: " وتاجوراء هذه قرية فيها أشجار وفيها فاكهة ونخل ورمان رمانها لا نظير له فيما رأيت إلا في مواضع قليلة وقد وجد في قرية عندنا تسمى بقرية أما لوفان رمانها أولى من هذا وأحلى منه..."[1].

وفي موضع آخر يقارن الورثيلاني بين ترف المصريين وفقر المغاربة، فيقول: "...أم الأسواق والأخبية والأطعمة المختلفة الأواني من الذهب والنحاس والفضة والملابس الفاخرة والخيل المسومة والرايات المفزعة والأسلحة القوية والرجال المزينة والنساء المخدرة والأسواق العامرة مما لا يحصى كثرة يكاد العقل يحيل فنائها وذهابها وانعدامها فلا تسأل عنها وعن عجائب ذلك أن أرزاقها أكثر منها فإن أهل وطننا بل سائر المغاربة يعلمون أنهم ليسوا من أهل الدنيا بل أموات بالنسبة إلى ما رأو من زخارف..."[2]، يورد الكاتب في هذا المقطع عددا كبيرا من الأوصاف، ويستعمل بعض العبارات التي تحيل على انبهار الكاتب وتعجبه من كل ما رآه في مصر، وتؤدي المقارنة في هذا النص وظيفة إيديولوجية ، من خلال نقد ظاهرة الفقر و العوز ، و حياة التخلف التي يعيشها أهل المغرب العربي [3]، والتي جعلتهم أمواتا مقارنة بأهل مصر.

3 – 1 – 2 – المكان المعبر:

هو الفضاء الذي يربط بين نقطة الانطلاق، ونقطة المقصد، وهو يضم أمكنة عديدة لابدّ للرحالة من اجتيازها، للوصول إلى المكان المقصود، وهو بداية السفر خارج مكان الألفة (الوطن)، وفيه يقابل العديد من الأشخاص، ويتزود بمعلومات ومعارف، وتجارب متنوعة يكتسبها من جراء اللقاءات والصدامات والمفاجآت.

---

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص213.

[2] المرجع نفسه. ص640.

[3] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ، تحت إشراف الشريف مريبعي، قسم اللغة العربية و آدابها، كلية اللغات و الأدب، جامعة الجزائر ، الجزائر،2007 م. ص246 .(بتصرف)

ويساهم المكان المعبر في زيادة معارف القارئ وتقوية معلوماته التاريخية والجغرافية والعلمية، كما تطلعه أيضا على مواقف وانطباعات الراوي، والتي تكون إمّا سلبية أو إيجابية أو محايدة في كثير من الأحيان، حسب طبيعة المكان والأشخاص الذي خالطهم واحتك بهم.

وقد تعدّدت أماكن العبور في رحلة الورثيلاني، من مدن، وقرى، وعشائر، ووديان، أنهار, وآبار، وجبال، وسهول، وصحاري وغيرها من المواضع.

وتعدّ تونس من أمكنة العبور، التي استوقفت الرحالة ومثال ذلك قوله: "وبالجملة فإن تونس خيرها عظيم، وحالها كريم، ووصفها نعيم، وطبعها نسيم، حلوة المذاق، عزيزة الفراق، كثيرة الاشتياق، قوية الأسواق، ممدودة الأرفاق، واسعة الأنفاق، جالبة الأرزاق، كثيرة الفواكه في جميع الأوقات بلا كلفة ولا مشاق، جامعة لأجناس الخلائق، فيها جميع الأصناف من أهل الحقائق، روضة للمطيع والعاصي، والرحيم والقاسي، والمتيقظ والناسي، لكل أحد جليسه، ولكل محب أنيسه، فما تشتهي بين يديك ..."[1]، يتبدّى في هذا المقطع، الوصف التقويمي الذاتي نظرا لما يحمله من أوصاف للموصوف، اعتمد فيه الرحالة كل من السجع نحو(عظيم، كريم، نعيم)، والطباق نحو(المطيع، العاصي، الرحيم، القاسي، المتيقظ، الناسي)، وهو وصف شمل الجانب المعنوي أيضا نحو(الاشتياق، الفراق).

وتعتبر أرض التيه من الأماكن التي شكلت انطباعات سلبية لدى الرحالة، ومثال ذلك في النص: " ومنها ينزل إلى أرض التيه وهي أرض مقفرة موحشة طويلة عريضة معطشة قد امتدت فيها الطرق امتداد السطور في الطروس، لم يلحقها على قدم العهد الدروس، تعظم فيها المشقة أيام الحر، وقد تتلف فيه أنفس كثيرة بالعطش" [2]، يتداخل الوصف مع السرد في

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق.ص771، 772.

[2] المرجع نفسه. ص385.

هذا المقطع، فتكون الحركة الزمنية متواترة بين السرعة والإبطاء، ويظهر جانب الوصف الذاتي التقويمي في عبارات مثل: (مقفرة، موحشة، عريضة، طويلة).

وفي موضع آخر يقول: "نزلنا قرية الحامة فيها نخل كثير ومياه عظيمة طيبة وفيها حمام بحري ماؤه قوي بحيث عمّ غالب القرية وماؤه حار كأنه تحته نار عظيمة بحيث من أراد الاغتسال فيه لا يقدر على الاغتسال فيه بغتة لشدة سخونته ..."[1]، يحاول الورثيلاني في هذا المقطع المراوحة بين أفعال السرد المرتبطة بالرحالة، وأفعال الوصف المرتبطة بالراوي، وهو أسلوب ينتفي فيه القطع التام لسير الأحداث.

ويصف الورثيلاني إحدى المساجد في مدينة طولقة فيقول: " وزرنا مسجدا وطلعنا إلى مآذنته وهي في غاية الإتقان والطول والسعة تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها وإدراجها مائة وأربع وعشرون درجة والمسجد في غاية السعة وإتقان البناء إلاّ أنه قلّ عامروه وضعف ساكنوه فلا ترى فيهم مدرسا ولا فقيها ولا قارئا مع أن هذه المدينة من أعجب المدن واجمعها لمنافع كثيرة ..."[2]، يؤدي الراوي في هذا الوصف دور الناقل للمشاهدات، كما يؤدي دور التحليل والتعليل لكل ما نقله، حيث يفتتح هذا المقطع بتقديم موضوع الوصف (المسجد)، ثم يتوسع بعد ذلك في الموضوع عن طريق إيراد عدد من الصفات والخصائص إلى المسجد، وهي التي قدّم فيها مجموعة من المحاسن ختمها بنقد لخلو المسجد من الفقهاء والمدرسين والطلاب، وتتخلل هذا النص الوصفي أفعال سردية مثل (زرنا، طلعنا، تقدر)، وإدراج الوصف ضمن السرد يدلّ على تنقل الشخصية من مكان إلى آخر.

ويصف الورثيلاني أيضا سوقا ببندر العقبة القريب من مكة فيقول: " وأقمنا فيه ما كتب لنا في نشاط عظيم وتسوق قوي وفيها سوق لا يكاد أن يحصى ما فيها من أنواع البز والثياب والأمتعة والأطعمة وأنواع الخبز من كعك وخبز وأنواع الطبائخ بتابل وغيره من أبزار

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 155، 156.

[2] المرجع نفسه. ص117.

منوعة الأجناس ومفترقة الأصناف...." [1]، يعدّ الوصف في هذا المقطع وصفا تعدادي يتثمل في إيراد مجموعة من الموجودات الكائنة في السوق مثل : الأمتعة والثياب والأطعمة وغيرها من البضائع، وهو وصف ذاتي تقويمي .

ويصف أيضا قصرا أثريا بناه أحد المتقدمين من الجهال على حدّ قوله، وهو موجود بإحدى القرى التونسية، قال فيه: " فسرنا كذلك إلى أن قربنا قرية مشهورة فيها قصر عظيم وبناء جسيم حكيم البيان متقن الصنعة عريض المتن له أبواب كثيرة طبقة على طبقة واسع المتن طويل البناء... وحوله قرية مستدير به كثيرة الزيتون خارج عن العادة عدا ووسعا وكبر جثة طويل الفروع فلا تكاد ترى الشمس من خلاله..." [2]، يعتبر هذا المقطع من الوصف الذاتي التقويمي، لما يحمله من أوصاف كثيرة للموصوف مشحونة بانبهار الكاتب به، وذكر ألفاظ دالة على ذلك (خراج عن العادة، لا تكاد ترى) .

وفي موضع آخر يتحدث الكاتب عن معطن الزعفران في ليبيا, فقال: "... وأرض الزعفران ربوة طيبة خصبة فقل نظيرها في برقة منيقة زاهرة كثيرة الأنوار في الربيع يستحسنها الناظر فمن دخلها تأنس بها تصلح للاستيطان كنت أتمناها للسكنى فلا تعلم نفس ما في هذه الأرض من المنافع..."[3]، لا يخلوا هذا المقطع الوصفي من الحركة، نظرا لكثرة الأفعال التي تنوعت بين الحاضر والماضي وهذا للدلالة على الحيوية والحركة، وتظهر الانطباعية والذاتية في هذا الوصف، ومن خلال استخدام عبارة (قل نظيره)، وقد لون أوصافه بلون الفرح وحاول عن طريق الأسلوب الانفعالي (التمني) وبعض الألفاظ، نقل أجواء الأنس والراحة والسعادة.

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص430، 431.

[2] المرجع نفسه. ص757.

[3] المرجع نفسه. ص711.

ومن المماثلات والتشبيهات في النص الرحلي، قوله: "... ثم بالعريعرة معطن بإزاء السبخة بساحل البحر به ماء عذب فرات طيب غزير من أعذب المياه ويقرب من ماء وجدناه بالتميمي ..." [1]، في هذا المقطع الوصفي يقوم الكاتب بتشبيهه مياه العريعرة بمياه التميمي، وهو تشبيه استوفى كل أركانه من مشبه ومشبه به، وآداة التشبيه (يقرب)، ووجه الشبه المتمثل في الغزارة والعذوبة.

3- 1- 3 - المكان المقصد:

هو المكان المنشود، الذي سعى إليه الرحالة وتحمل في سبيل الوصول إليه، مشقات السفر، ومخاطر الطريق وأهوالها، وهو" الإطار العام الذي تتحقق فيه الرغبات، فيتم اللجوء إليه عن رغبة وشوق (الحج، الزيارة، السياحة)، أو بأمر (السفارة)، أوعن ضرورة وحاجة (التجارة، العلم)، أو عن اضطرار (الهجرة، النفي) " [2]، وغالبا ما يتم تحديد المقصد في بداية الرحلة، حيث يعلن الرحالة عن طبيعة الرحلة، إن كانت حجية، أم سفريه، أم سياحية، وعادة ما يحمل الرحالة رؤى وتصورات ذهنية ووجدانية، بخصوص المقصد الذي يتوجه إليه، قد تتحقق هذه التصورات على أرض الواقع، وقد لا توفق في ذلك وتصطدم بوقائع كثيرة فتبقى مجرد أضغاث أحلام لا أكثر ولا أقل.

أفصح الورثيلاني عن دخوله مكة المكرمة، وهو المكان الذي عبّر فيه عن مشاعره المليئة بالشوق والفرح والسرور، وأحس فيه بالتغييب والتيه عن الزمان، وفيه يقول: " فدخلنا مكة فلم نغادر في النفس ترحة، وأزالت عن الجفون كل فرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التعب والنصب كأن النفوس في وليمة عظيمة... فلما هب نسيم جوار الحبيب عليها أيقظها وأشهدها رسوم مكان الوصال, ودلائل الحضرة وسواطع الانتقال، فعلمت بيت الرب، وتعلق

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص712.

[2] شعيب حليفي :الرحلة في الأدب العربي .ص350.

به الجبح واللب، سدل كل حبيب سوى هذا الحبيب وراءه، فأقام كاس الجوار وأداره، وصار شذاؤها انتظاره..."[1]، لم يهتم الرحالة في هذا المقطع بوصف المكان، بقدر ما اهتم بوصف الحالة الشعورية التي صاحبته في هذا المكان المقدس، والتي كان لها أثر عميق في نفسه، فزالت الهموم والآلام والمتاعب.

وفي موضع آخر يخالج الرحالة نفس الشعور بالتأثر والتغيب، فقال عند تواجده بالمدينة المنورة: " فلما استقر بنا القرار في مدينة الرسول وشاهدنا تلك المشاهد النبوية الفردانية الصمدانية القدسية الروحانية المحمدية الأحمدية ظهرت لنا معالم الأنوار، ونتائج النبي المختار، وثمرة الود وكشف الأستار، وحضرة القهار، فانعكس في قلوبنا روحانيته عليه الصلاة والسلام فامتزجت بقوالبنا وظهر نوره صلى الله عليه وسلم على الأجباح، فناط متمكنا منا بعلم الأرواح، فغاب منا عالم الصفات في محو صفاته صلى الله عليه وسلم فاستعقب ذلك سريان آثار اللهوت، فتمكن في المحل الذي هو الناسوت، فلم يبق لوجود الخلق آثار لأن سطوة الحق لا يبقى معها غيره إذ كل شيء ما خلا الله باطل" [2]، أظهر الكاتب في هذا المقطع السردي الذي تتخلله عدّة عبارات وصفية نزعته الصوفية، وذلك من خلال تبنيه لفكرة الحلول، التي تعتبر من الأفكار الرئيسية التي ظهرت في مجال التصوف، وأكثرها إثارة للجدل.

ومن مظاهر التأثر أيضا قوله : "... ذهبنا إلى الحرم الشريف، والمسجد المنيف، إلى أن وصلنا فدخلنا من باب السلام، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، ولقد تاه القلب في الجلال، والبهاء والكمال، وانبسط علينا النور في الحال، وكنا في التنقل في مراتب التجلي أعز انتقال، فاطمأن الفؤاد وطاب الحمد والثناء على الوصول إلى روضة المتعال، فبلغ

[1] الحسين الورثيلاني: نزهة الأنظار .ص452.

[2] المرجع نفسه. ص576، 577.

القلب مناه، فغاب عن الأكوان بكامل البدور، وقمر العز فتنزه عن سواه..."[1]، عبّر الورثيلاني في هذا المقطع السردي عن التأثر الذاتي بروحانية المكان، والسعادة التي اجتاحته ببلوغ هدفه ومقصده.

3 – 2 – المكان التاريخي:

إضافة إلى مكان الرحلة، هناك مكان آخر وهو المكان التاريخي، الذي يستدعيه الرحالة خلال عملية التدوين، فيروي أحداثا جرت في الماضي، أدّتها شخصيات من الماضي، وقد لجأ إليها الرحالة اعتمادا على ذاكرته الشخصية أحيانا، والاقتباس من بعض المصادر المختلفة أحيانا أخرى، وخاصة كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة، ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، إضافة إلى رحلة أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي المشهورة بالرحلة الناصرية وغيرها وكذلك نقوله عن عامة الناس.

وقد رجع الورثيلاني في بعض المواقع من رحلته إلى التاريخ البعيد، ليعرف بالأماكن، فرجع إلى عهد الأمير رضوان، في خضم حديثه عن بعض القرى الموجودة في الحجاز وذلك في قوله: " ثم كذلك إلى أن نزلنا القرية المعلومة التي ينزل فيها الركب وهي جديدة وفي هذه القرية مسجد جامع له بناء متقن تجري العين من تحته من بناء الأمير رضوان رحمه الله تعالى وكم له في طريق الحجاز من مآثر ومعالم تدلّ همته ..."[2] اعتمد الرحالة في هذا النص على مخزون الذاكرة الذاتي، في وصف هذه القرية ومسجدها والتعريف بالشخصية التي قامت ببناءه، ونلمس في هذا النص إعجاب الرحالة بهذه الشخصية التي قامت بأعمال كثيرة .

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص530.

[2] المرجع نفسه. ص 524.

وفي موضع آخر يحاول الورثيلاني التعريف بأحد الأماكن التاريخية وهي مقبرة المدينة المنورة، من خلال إيراد بعض الشخصيات الدينية التاريخية التي دفنت فيها فقال: " فمقبرة المدينة لا مقبرة على وجه الأرض أشرف منها بالإجماع فهي خارجة من الخلاف الذي في تفضيل المدينة على مكة إذ لا نعلم مقبرة على وجه الأرض مثلها دفن فيها من سادات هذه الأمة وأفاضلها من الصحابة خصوصا الخلفاء وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده وأكابر أهل بيته وسادات التابعين... فلا يشك مسلم أن ليس في أمة النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الزمرة التي تبعث من المدينة"[1]، يرتدّ الزمن في هذا التاريخ إلى زمن بعيد، زمن خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وزمن الصحابة والخلفاء الراشدين، ويقدم الكاتب رأيه في المقبرة، بأسلوب التفضيل (لا مقبرة على وجه الأرض أشرف منها، لا نعلم مقبرة على وجه الأرض مثلها)، الذي يحسم من خلاله أي خلاف حول تفصيل المدينة عن مكة، وقد سعى أيضا من خلال تعداد الشخصيات التي دفنت في المقبرة إلى إبراز عظمة المكان وقدسيته .

وفي التعريف بمدينة تونس ينقل الورثيلاني عن صاحب الأدلّة السنية النورانية على مخافر الدولة الحفصية فيقول: " ... وهي مدينة إسلامية أحدثت عام ثمانين من الهجرة وكان أبو جعفر المنصور العباسي إذا قدم عليه رسول أمير إفريقية يقول ما فعلت إحدى القيروانيين يعني تونس تعظيما لها وهي اليوم قاعدة البلاد الإفريقية ... فكثر خلقها واتسع بشرها ورغب الناس في سكناها وأحدثوا بها المباني والكروم والبساتين..."[2]، وقد كان هدف الكاتب من هذا المكان التاريخي التوسع في الوصف، والتعريف أكثر بالمدينة .

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص533.

[2] المرجع نفسه. ص 772.

وفي موضع آخر ينقل الورثيلاني أخبارا عن مدينة درنة بليبية عن أحمد بن ناصر في رحلته فيقول: "... ولم تكن قبل بها العمارة وإنما أحدثت في حدود الأربعين والألف بناها الأندلس لما خرجوا من جزيرتهم ونزلوا في ذلك المكان وأعجبهم وآنقهم وفجروا أنهارا و غرسوا أشجارا وحفروا سواقي... ولم يكونوا تحت حكم أحد ثم أنهم طغوا واشتغلوا بالفساد ومدوا أيديهم إلى عمالة طرابلس في زمن عثمان باش وغاض ذلك أهل طرابلس ووجهوا لهم عسكرا وتقاتلوا معهم وأخذوهم وقتلوا من قتلوا ونفوا من نفوا ولم يبق منهم إلاّ أقل القليل واستولى أهل طرابلس على البلدة ".[1]

يحمل النقل خبرا عن استيطان الأندلسيين لمدينة درنة منذ سنة 1040 هـ (1630 م)، وتعميرهم لها، ومحاولاتهم التخلص من سيطرة باشا طرابلس، وكذلك الأحداث التي وقعت بينهم وبين عثمان باشا والتي أدّت إلى مقتل وطرد الكثير منهم، ولقد لجأ الورثيلاني إلى هذا النقل للتعريف بماضي المكان.

ومن نقوله أيضا عن عامة الناس قوله في أحد المواضع الحجازية:" ثم سرنا وصلينا العصر بملل بعدما تجاوزنا السيالة ومررنا على شرف الروحاء وهو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء وقد ذكر بعض الناس أن الشهداء الذين سمي بهم المكان قوم قتلوا هناك ظلما "[2].

[1] الحسين الورثيلاني ، المرجع السابق. ص 703.

[2] المرجع نفسه. ص 525 .

الخاتمة

الخـــــــاتمة:

بعد التعرف على مفهوم الرحلة، وآدابها، وأغراضها، وأهم أنواعها، ومفهوم أدب الرحلة، وأهميته، اتجهت إلى تطور هذا الأدب عند العرب، وعند الجزائريين فتطرقت لأبرز الأعلام ومصنفاتهم، ثم انتقلت بعد ذلك إلى دراسة رحلة الورثيلاني التي تعتبر من أهم الرحلات الجزائرية خلال العهد العثماني، فسلطت الضوء على البنى السردية، كبنية الشخصيات، وبنية الزمان، وبنية المكان، ورصدت في الأخير جملة من النتائج، والتي توصلت إليها أثناء دراستي لهذه الرحلة وهي كالتالي:

– شخصية الذات الراحلة هي الشخصية الرئيسية في الرحلة، والتي قامت بأدوار عديدة كدور المعلم، والمرشد، والحارس، والمدافع... الخ.

– أمّا باقي الشخوص، فهي عبارة عن شخصيات ثانوية، تنوعت ما بين شخصيات مساعدة قامت بدور المساندة والدعم، وشخصيات معارضة اتخذت دور الإساءة، وإثارة المشاكل، وقد ساهمت هذه الشخوص في تطوير الأحداث.

– بروز مشاعر الرحالة وانطباعاته نحو الآخر، من الاستحسان والإعجاب إلى الاستهجان والاستنكار.

– اعتماد الرحلة على الوصف، والسرد في الكشف عن الشخصيات والتعرف عليها.

– كما أنّ الزمن في الرحلة ينقسم إلى نوعين: زمن الرحلة، وهوزمن استرجاعي يدلّ على وجود مسافة بين فعل الارتحال وفعل التدوين، ويأخذ هذا الزمن بعدا نفسيا، من خلال التعبير عن مشاعر وأحاسيس الرحالة. وزمن التأليف الذي هوزمن آني مراهن للخطاب.

– الالتزام بالتأريخ الزمني قدر الإمكان، رغم عدم انتظامه في كثير من الأحيان فأحيانا يكتفي الرحالة بذكر اليوم والوقت وأحيانا أخرى يتم ذكر اليوم والسنة، أو مدّة الإقامة وعدد الأيام.

– أمّا المكان فقد نال الحظ الأوفر في الرحلة، فقد اهتم الرحالة اهتماما بالغا بإبراز أسماء الأماكن، وأوصافها، ومكّوناتها، ومزاياها، ومقارنتها في بعض الأحيان بأماكن أخرى، بغية

الإفصاح عن أوجه الشبه أو الاختلاف فيما بينها، ويتم هذا كلّه من خلال الاعتماد على الذاكرة التي تعتبر المنطلق الأول والرئيس.

– والملاحظ أنّ المكان في الرحلة ينقسم إلى قسمين: مكان الرحلة والمكان التاريخي وكلاهما يكتسي مرجعية واقعية، فالرحالة يلتزم الصدق في كل مشاهداته.

– يتعدّد مكان الرحلة ما بين المكان المنطلق الذي يمثل وطن الرحالة، والمكان المعبر الذي يضم المناطق التي مرّ بها الرحالة واحتكّ بالآخر فيها، والمكان المقصد الذي تحلّى لأجل الوصول إليه مشاق وأخطار الطريق، ومكان الرحلة هو الذي يؤطر أحداث الرحلة، من الانطلاق والمسير إلى الوصول.

– أمّا المكان التاريخي فليس هو الإطار الذي تجري فيه أحداث الرحلة، وإنّما هو الإطار الذي جرت فيه أحداث ووقائع في الماضي، لجأ إليه الرحالة اعتمادا على ذاكرته الشخصية، وبعض النقول من الكتب المختلفة.، ككتاب مختصر الجمان في اخبار اهل الزمان، وكتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة وغيرها من الكتب، ويتم سرد أحداث هذا المكان، بغية التوسع في الوصف وإبراز عظمة المكان.

وفي الأخير نستطيع أن نقول بأنّ هذه الدراسة ما هي إلاّ محاولة منّا لتسليط الضوء على البنية السردية لرحلة الورثيلاني، والتي أسهمت في إبراز أدبية الرحلة، واسأل الله التوفيق فيما قدمته.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

المصادر:

1-ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج1، المكتبة التجارية الكبرى،(د ط)، مصر، 1958م.

2-ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، دار الفكر،(د ط)، بيروت، 2004.

3-ابن فضلان أحمد: رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، تح: سامي الدهان، المطبعة الهاشمية،(د ط)، دمشق، يونيو، 1960م.

4-أبوراس الجزائري محمد: فتح الإله ومنته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ط)، الجزائر، 1990م.

5-الأمير عبد القادر ، مذكرات الأمير عبد القادر ، تقد : عبد المجيد مزيان ، شركة دار الأمّة ، ط3 ، الجزائر ، 1998 م.

6-البجائي أحمد أبو عصيدة: رسالة الغريب إلى الحبيب، تص: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1993م.

7- العبدري أبي عبد الله : رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، ط2، دمشق، 2005م.

8-العياشي أبو سالم: الرحلة العياشية، مج1، تح: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي، ط1. أبوظبي، 2006م

9-القسنطيني ابن قنفذ: أنس الفقير وعزّ الحقير، تصحيح محمد الفاسي، أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، (د ط)، الرباط، 1965م.

10- المسعودي أبو الحسن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، تح، سعيد محمد اللخام، دار الفكر،(د ط)،(د م)، 2000م.

11- المقري أبي العباس أحمد: رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، (د ط)، الجزائر، 2004م.

12- الورثيلاني الحسين بن محمد : نزهة الأنبار في فضل عم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية ، ط1 ، القاهرة ، 2008.

المراجع:

1. إبراهيم عيسى علي : الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، (د ط)، مصر، 2000م.
2. أحمد أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، (د ط)، جدة، (د ت). ص 11؛ نقلا عن المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 3.
3. أمين أحمد: ضحى الإسلام، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، القاهرة، 1998م.
4. أنساعد سميرة:" صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني"، مجلة التراث العربي مجلة شهرية، ع د: 97، مارس 2005م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
5. الأنصاري عبد القدوس: مع ابن جبير في رحته، ط1، (د م)،1396هـ.
6. بحراوي حسن : بنية الشكل الروائي ، الفضاء ، الزمن ، الشخصيات ، المركز الثقافي العربي ، ط1، بيروت ، 1990.
7. البغدادي الخطيب: الرحلة في طلب الحديث، (د ط)، ط1، دمشق، 1975م.
8. بن قينة عمر: الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، اتحاد الكتاب العرب، (د ط)، دمشق، 1999م.
9. حسين حسني محمود: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، ط2، بيروت، لبنان، 1983م.
10. حسين زكي محمد: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، (د ط)، بيروت، لبنان،1981م. ص 105.
11. الحفناوي أبي القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، بيير فونتانة الشرقية،(د ط)، الجزائر، 1906م.
12. حليفي شعيب: الرحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006م.
13. حمود خضر موسى محمد: أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2011م.

14. خصباك شاكر: الجغرافيا عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1986.
15. زيادة نقولا: الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، (د.ط)، بيروت، لبنان،1987م. ص 147م.
16. سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 4، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996م.
17. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي(1500- 1830)، ج 2، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت،1998م.
18. سعد الله أبو القاسم: مجموع رحلات، المعرفة الدولية،(د ط)، الجزائر، 2011م.
19. السيوطي عبد الرحمان جلال الدين: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج2، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط 2، القاهرة، 1979م.
20. الشامي صلاح الدين: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، منشأة المعارف، ط 2، الإسكندرية، 1999 م.
21. الصالح صبحي: منهل الواردين شرح رياض الصالحين، ج2، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1970م.
22. الصعيدي عبد الحكيم عبد اللطيف: الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط 1، القاهرة، 1996م.
23. ضيف شوقي: الرحلات، دار المعارف، ط4، القاهرة، (د ت).
24. عبد العالي بشير : تحليل الخطاب السردي والشعري ، دار الغرب ، (دط) ، الجزائر ، (دت).
25. عبود أوريدة: المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية دراسة بنيوية للنفوس ثائرة، دار الأمل،(د ط)،(د م) .
26. عبيد محمد صابر ، البياتي سوسن: جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار، (د ط)، سوريا.
27. علي جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7، جامعة بغداد، ط 2، بغداد، 1993م، ص 370.

28. الغزالي أبو حامد: إحياء علوم الدين،ج1، مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا،(د ط)، القاهرة، (د ت).
29. الفندي جمال: الجغرافيا عند المسلمين، دار الكتاب اللبناني، ط 1، بيروت، لبنان، 1982م.
30. فهيم حسين محمد: أدب الرحلات، عالم المعرفة، (د. ط)، الكويت، 1989م.
31. فيلالي مختار بن طاهر: رحلة الورثيلاني عرض ودراسة، دار الشهاب، (د ط)، باتنة الجزائر، (د ت) .
32. قاسم سيزا: بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، القاهرة، 1984.
33. قنديل فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب،(د ط)، القاهرة، 2002 م.
34. لحميداني حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي.
35. لفتة ضياء غاني ، لفتة عواد كاظم: سرديات النص الأدبي، مكتبة حامد، ط1، عمان، 2011م .
36. محمد يونس نواب عواطف: الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دار الطبع،(د ط)، الرياض، 1996 م.
37. مرتاض عبد المالك: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون، (د ط)، الكويت، 1978.
38. نجم محمد يوسف: فن المقال، دار الثقافة، (د ط)، بيروت، 1966م.ص 115.
39. النساج سيد حامد: مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب،(د. ط)، القاهرة، (د.ت).
40. نصار حسين: أدب الرحلة، مكتبة لبنان الحديثة، ط1، القاهرة، 1991م.
41. النووي أبي زكريا محي الدين بن شرف : كتاب المجموع، ج 4 ، تح: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، (د ط)، جدة، المملكة العربية السعودية، (د ت).

المراجع المترجمة:

1. باشلار غاستون: جماليات المكان، تر : غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، بيروت،1987.
2. كراتشكوفسكي أغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر،(د ط)، القاهرة، 1965م.

المعاجم :

1.ابن فارس: مقاييس اللغة،ج2، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (دط)، بيروت،1979م.
2.ابن منظور: لسان العرب، مج 11، دار صادر ودار بيروت،(د ط)، بيروت، (دت).
3.الحموي ياقوت : معجم البلدان ، دار صادر ، (دط)، بيروت ، 1977.
4.عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط 2، بيروت، لبنان، 1980م.
5.الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط 8، بيروت، 2005م.
6.وهبه مجدي ، المهندس كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت لبنان، 1984م.

المذكرات:

1. أنساعد سميرة : الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ، تحت إشراف الشريف المريبعي ، قسم اللغة العربية و آدابها ، كلية اللغات والأدب ، جامعة الجزائر، الجزائر ، 2007 م .
2. آل حمادي عبد الله بن أحمد بن حامد : أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ، تحت إشراف محمد صالح جمال بدوي قسم الدراسات العليا العربية ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، 1997 م .

المقالات :

1. إنجيل بطرس سمعان:" الرحلة في الأدب الانجليزي"، مجلة الهلال، ع د يوليو،1975، مصر.
2. راغب نبيل:" أدب الرحلات"، مجلة الفيصل، ع د 88، يوليو1984م، المملكة العربية السعودية.
3. سعد الله أبو قاسم: "عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته(لسان المقال)"، مجلة مجمع اللغة العربية، مج 50، كانون الثاني 1975م، دمشق.

الفهرس

المحتويات	الصفحة
شكر وعرفان	
مقدمة	**أ،ب،ج،د**
الفصل التمهيدي: الرحلة مفهومها وانواعها	
1- الرحلة في اللغة	06
2- الرحلة في الاصطلاح	**07**
3- الرحلة والإسلام	08
4 - آداب الرحلة وتقاليد السفر	11
5- **أغراض الرحلة**	14
5-1- دوافع دينية	14
5-2- دوافع علمية	14
5- 3 تجارية	**14**
5-4- سياسية	15
5-5- سياحية	15
5- 6- دوافع أخرى	15
6 - أنواع الرحلة العربية	15
6 -1 الرحلات التجارية	16
6- 2 الرحلات الدينية	17
6 -3 الرحلات العلمية	18
6 -4 الرحلات الرسمية	**23**
7- مفهوم أدب الرحلة	24

8- أهمية أدب الرحلة	28
الفصل الأول: أدب الرحلة عند العرب وعند الجزائريين	
1 - أدب الرحلة وتطوره عند العرب	**31**
1 – 1- القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)	32
1- 2- القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي):	34
1 – 3- القرن الخامس الهجري(الحادي عشر ميلادي):	35
1- 4- القرن السادس الهجري(الثاني عشر الميلادي):	35
1- 5 - القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي):	37
1- 6- القرن الثامن الهجري(الرابع العشر الميلادي):	39
1- 7- القرن التاسع والعاشر الهجريين(الخامس عشر والسادس عشر الميلادي)	41
1- 8- القرن الحادي عشر الهجري(السابع عشر ميلادي)	42
1- 9- القرن الثاني عشر الهجري(الثامن عشر الميلادي)	44
2 - أدب الرحلة عند الجزائريين	46
2- 1- الرحلات العلمية	48
2- 2 الرحلات الحجازية	52
الفصل الثاني: البنية السردية في رحلة الورثيلاني	
1 ـ بينة الشخصيات	63
1-1- شخصية الذات الراحلة:	64
1- 2- شخصية الآخر	68
1- 2- 1- المرافق للرحالة	69
1- 2- 2- الحاكم و ولي الأمر	70
1- 2- 3- رجل العلم و السياسة	72
1- 2 – 4- رجال من العامة	75

2 - بنية الزمن	77
2- 1- زمن الرحلة	77
2- 1 – 1- زمن الإنطلاق	78
2- 1 – 2- زمن السير	79
2- 1 – 3- زمن الوصول	82
2 – 2 – زمن التأليف	83
2 – 2 – 1- الافتتاحية:	83
2 – 2 – 2- العرض	84
2 – 2 – 3- الخاتمة	85
3 - بنية المكان	85
3- 1- مكان الرحلة	87
3- 1 – 1- مكان المنطلق	88
3 – 1 – 2 المكان المعبر	90
3 – 1 – 3 المكان المقصد	94
3 – 2- المكان التاريخي	96
الخاتمة	100
قائمة المراجع	
الملخص بالفرنسية	

Résumé:

L’objet de cette étude s’axe sur le thème du voyage de « El ouartilani ». Ce voyage « La Rihla » ,vers les lieux saints de l’islam, en quête spirituelle à été effectué dans le strict respect des règles de convenance pour le voyage .

Il est considéré comme un concentré d’histoire et de témoignages sur les événements qui ont affecté l’auteur dans son voyage .

Le parcourt de ce voyage qui commence à partir de son village ou se regroupent les pèlerins qui accompagnent El ouartilani et se dirige vers Biskra en passant à travers plusieurs villages algeriens, et poursuit son voyage Jusqu’à Touzer et Guabes . Il reprend l’itinéraire qui longe la cote libyenne jusqu’à la ville de Tripoli et Barka , et suit la route habituelle des pèlerins du maghreb à travers l’Egypte jusqu’à la péninsule arabique.

Au cours de ce voyage , il donne sur les moeurs, les personnalités, l'état politique social , religieux et culturel des renseignements d'une valeur inestimable. Il rend compte de tous les débats qu’il a eu avec ses pairs d’Orient et il a établit les monographies des contrées traversées en relatant des récits précis des endroits qu’il a visité . il a fait la description des cites géographiques (montagnes , oued et villages), des mosquées et des points d’eau

C’est en étudiant la structure narrative de ce voyage qui est notre objectif , qu’on découvre l’élégance de ce style de littérature et les éléments narratifs de temps et de lieu et des personnages pour qu’il soit qualifié principalement comme une oeuvre littéraire .

.